دراسة



التحليل النفسى للأدب

دراسة نفسية لملحمة الحرافيش لنجيب محفوظ







محمد حسن غانم

التحليل النفسي للأدب

دراسة نفسية

في ملحمة الحرافيش

لنجيب محفوظ

د. محمد حسن غانم



مفتتح

تتناول هذه الدراسة بالقراءة والتحليل النفسي - الشخصيات المحوريـة ذات التأثير في ملحمة الحرافيش من خلال ما ورد في كل حكاية عـن الشخصية.

وأيضاً فإنها تتناول الحديث عن سيكولوجية الحرافيش، وكذلك مصائر الشخصيات والتنوعات المختلفة لهذا المصير.

ونسأل ا السداد والتوفيق،،،

د. محمد حسن غانم

مقدمة

لسنا في حاجة إلى التأكيد بأن نجيب محفوظ أكبر كتاب العربيـة فـي العصر الحديث وأكثرهم شهرة وأعظمهم مكانة محلياً وعالميـاً، وهـو أيضاً من أغزرهم إنتاجاً وأوسعهم شعبية، إضافة إلى مكانته الرفيعـة بين المثقفين والأكاديميين، أصدر حتى الآن (٥٢) كتاباً من بينها (١٥) مجموعة قصصية و(٣٧) رواية، أُنتج منها عشرات الأفلام السـينمائية والمسرحيات ومسلسلات التليفزيون، إضافة إلى عدة كتب (أملاها) عن حياته وتأملاته إلى تلامذته وزملائه من النقاد والكتاب مثـل: (نجيـب محفوظ يتذكر) حيث قام بذلك الروائي جمال الغيطاني، و(أسـبوعيات) كل يوم خميس في الأهرام، حيث يقوم بالكتابة محمد سلماوي، إضـافة إلى العديد من رسائل الجامعات سواء في مصر أو العـالم العربـي أو العالم الأجنبي، إضافة إلى ترجمة العديد من أعماله إلى عـدة لغـات، ناهيك عن أنه الكاتب الأكثر التزاماً بقضايا أمته –المصرية خاصـة والعربية عامة- مما جعله يحظى بالعديد من مظاهر التقدير والتكريم، فقد نال وسام الاستحقاق عام ١٩٦٢، ثم وسام الجمهورية عام ١٩٦٨، وجائزة الدولة التقديرية في الآداب، وحصوله على قلادة النيـل أرفـع الأوسمة المصرية عام ١٩٨٨، ثم حصل على أعلى تقدير عالمي تمثل في حصوله على جائزة نوبل في الآداب (وهو الكاتب العربي الوحيـد حتى الآن الذي حصل عليها) وفي عام ١٩٩٤ فاز بجـائزة الإبـداع الأجنبي المتميز في بريطانيا وفي عام ١٩٩٥ منحته الحكومة الفرنسية

وسام (الكومودور) إضافة إلى أنه يلقب بعدة ألقاب مثل: شيخ الرواية العربية و: شيخ الحرافيش. ولم يصل إلى هذا المجد الأدبي والتقدير المحلي والعربي والدولي إلا من خلال إرادة دءوبة وجد واجتهاد وعدم ضعف أمام إغراءات الحياة – وما أكثرها!.

نبذة عنه:

ولد نجيب محفوظ عبد العزيز الباشا لأسرة من صغار الموظفين والتجار، في حي الجمالية أحد أقدم أحياء القاهرة، وبدأ تعليمه في الكتاب والمنزل، ولكنه انتقل بسرعة إلى المدارس الحكومية المدنية، والتحق بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) ليدرس الفلسفة، وتقدم بعد حصوله على الليسانس بتفوق برسالة لنيل درجة الماجستير بدراسة عن الفيلسوف المعاصر (هنري برجسون).

ولكنه لم يكمل الدراسة، والتحق بالعمل موظفاً بالحكومة، وتنقل من وزارة الأوقاف إلى مؤسسة السينما إلى أن أصبح رئيساً لها في منتصف الستينيات، كما نشر أعماله الإبداعية بالأهرام بانتظام منذ عام ١٩٥٩ إلى أن أصبح كاتباً متفرغاً منذ عام ١٩٦٨ حتى الآن.

أهم المؤثرات في مراحل نمو نجيب محفوظ:

١- أن طفولته كما ذكر كانت عادية ولكنها في الواقع قد شابها بعض الأمور مثل:

أ- تأثره بالأم أكثر من الأب.

ب- حرمانه من الحياة مع أخوته لفارق السن الكبير.

ج- أن الصداقة تحتل مكانة مهمة في حياة نجيب محفوظ.

د- يكاد أن يكون الروائي الوحيد –حسب علمنا- الذي لم يشك أبداً من أن الوظيفة قيد أو تركها حتى يتفرغ للإبداع الأدبي (على عكس ما فعل الكثيرون) بل على العكس أحب وظيفته، واستثمرها أنجح استثمار في رواياته حيث كان يتعامل يومياً مع العديد من الناس ونماذج بشرية لا حصر لها خاصة إبان فترة عمله في وزارة الأوقاف في مشروع (القرض الحسن) على الأخص.

هـ- عشق نجيب محفوظ للمكان، بل يعد المقولة المركزية في أدب نجيب محفوظ بوجه عام، أو في أهم إنتاجه على الأقل وهو ما يظهر على نحو مباشر من العناوين المكانية لكثير من رواياته مثل القاهرة الجديدة، خان الخليلي، زقاق المدق، بين القصرين، قصر الشوق، السكرية.. وهكذا.

و- تزوج في سن متأخرة نسبياً إلا أنه قد اقتنع بأن الزواج لا يعطل الإبداع، بل على العكس قد يفيد وينشط (على عكس بعض الذين يدعون إلى غير ذلك).

ط- يحتل المقهى مكانة بارزة في أدب نجيب محفوظ، لأنه من وجهة نظره (محور الصداقة) و(عالم الإنس) و(ملتقى الصحاب) كما أنه الموضع الحميم الذي ينبت الشعور بالألفةو الاطمئنان، وهو بهذا كله يعد خلفية لاستثارة الخيال والأفكار.

ظ- كذا الحارة، والتي لعبت في طفولة نجيب محفوظ دوراً مهماً. فهي ذلك الطريق المرصوف الذي تقوم على جانبيه مستويات اجتماعية شديدة التفاوت أحياناً من حيث الثراء والمكانة.

ولعل عالم الحارة ببعده (العيني والغيبـي) حيـث التكيـة والأناشـيد، والسور العتيق، والقرافة، والزاوية وعالم الخلاء، ثـم حيـاة الحـارة، الميلاد والموت والحياة. وقصة أجيال الفتـوات، وحيـاة الصـعاليك والحرافيش في مزاوجة بين الحلم والواقع، مما يجعلنا نكاد أن نذكر أن عالم الحارة – بكل مفرداته- هو ما يخص العـالم الروائـي لنجيـب محفوظ. وهو نفسه يؤكد أن الحارة ما هي إلا رمز لمصر والعالم ولا أعني بها أي رمز ديني مطلقاً.

وقد تكررت في العديد من أعماله مثل أولاد حارتنا، وحكايات حارتنا، حكاية بلا بداية ولا نهاية، وأخيراً وصل إلى السيمفونية الروائية عـن الحارة المصرية في ملحمة الحرافيش.

مراحل التطور الإبداعي عند نجيب محفوظ:

اعتاد النقاد تقسيم أعمال نجيب محفوظ إلى تصـنيفات محـددة وفقـاً للمرحلة الزمني لتطوره الإبداعي، ومن خلال تناول الأعمال الإبداعية التي واكبت هذه المرحلة من خلال تحليل المضمون وتطبيـق معـايير النقد. وإذا كنا لا نوافق على فرض قوالب جامدة للتصنيف إلا أننـا لا ننكر أهميته. وعموماً نتفق مع الرأي الذي يقسم حياة محفوظ الأدبيـة إلى المراحل التالية:

١ – **المرحلة التاريخية**: والتي تمثلت في ثلاثة أعمال أدبيـة مـن الأدب الفرعوني القديم وهي: عبث الأقدار ١٩٣٩، رادوبيس ١٩٤٣، وكفاح طيبة ١٩٤٤.

المرحلة الواقعية: والتي تضم روايات القاهرة الجديدة ١٩٤٥، خـان الخليلي ١٩٤٦، زقاق المدق ١٩٤٧، السراب ١٩٤٨، وبداية ونهايـة ١٩٤٩.

وإن كان بعض النقاد يعتبرون رواية السراب الاستثناء الوحيد من هذه المرحلة لأنها تمثل الرواية التحليلية النفسية.

٣ – المرحلة الواقعية التسجيلية: والتي تضم أضخم أعمال نجيب محفوظ على الإطلاق وهي: الثلاثية (بين القصرين، قصـر الشـوق، السكرية) وهي تسجيل لحياة أسرة مصرية من خلال ظـروف مصـر السياسية والاجتماعية في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى ومـروراً بثورة ١٩١٩، ومعاهدة ١٩٣٦ حتى الحرب العالمية الثانيـة – إنهـا رواية أجيال.

٤ ـ مرحلة الواقعية الفلسفية: والتي تبدأ بروايـة (أولاد حارتنـا) والتي نشرتها الأهرام، وما زال يسري عليها قرار المنـع حتـى الآن على الرغم من أنها طبعت عدة مرات في بيروت، كما يرى العديد من المفكرين والنقاد أنه ليس فيها ما يستوجب المنع لأن محفوظ عبر عـن فلسفتها قبل الراوية الممنوعة وبعدها ثم (اللـص والكـلاب) ١٩٦١، السمان والخريف ١٩٦٢، الطريق ١٩٦٤، الشحاذ ١٩٦٥ ثرثرة فوق النيل ١٩٦٦، وميرامار ١٩٦٧.

٥ ـ مرحلة العبثية: وهي مرحلة مؤقتة أعقبت هزيمة ١٩٦٧ ونشر خلالها: تحت المظلة، حكاية بلا بداية ولا نهاية، شهر العسل، المرايا، والحب تحت المطر، وإن كنا نظن أن رواية ثرثرة فوق النيل تنتمـي

إلى هذا التيار العبثي، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل علـى قـدرة الكاتب على استلهام ما سوف تؤدي إليه الأحوال من تدهور يصل إلى قمته في هزيمة سياسية للبلاد نتيجة للعديد من محكات الماضي.

٦ – مرحلة الواقعية الجديدة والفلسفية: حيـث اسـتعاد توازنـه وكتب: الكرنك، يوم قتل الزعيم، الحرافيش، الحب فوق هضبة الهرم، قلب الليل، الشيطان يعظ، أفراح القبة، ليالي ألف ليلة وليلة، قشـتمر، حديث الصباح والمساء، وغيرها من الإبداعات التي تتوالى حتـى الآن وإن كانت بصورة أقل نتيجة للعديد من العوامل أهمها تقدمه في العمر، صعوبة السمع والقراءة[١].

مدخل إلى الدراسة

لماذا ملحمة الحرافيش؟

ظل نجيب محفوظ كما يقول يحيى الرخاوي ١٩٩٢ يحاول ويحـاور، ويطرقها من كل جانب وبكل سبيل، حتى بلغـت أوج البـدايات فـي الطريق، وتعددت المحاولات في أكثر من موقع في الرواية، وفي أكثر من قصة قصيرة اختلفت ظهوراً، ثم التفافاً حول المسألة نفسها، بل يكاد لا يخلو عمل له إلا وذكره، ثم وقع في مطب المباشـرة بروايـة أولاد

---

(١) اعتمدنا في هذه المرحلة على:

(أ) محمود فوزي: "اعترافات نجيب محفوظ"، دار الشباب، القاهرة، بدون تاريخ نشر.

(ب) فاروق عبد المعطي: "نجيب محفوظ بين الرواية والأدب والروائي" دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٤، لبنان.

حارتنا، ثم حاول محاولة دءوبة حتى وصل إلى الذروة فـي ملحمـة الحرافيش، بل إنه يقر أن الحرافيش هـي التطـور التجـاوزي لأولاد حارتنا [1] ونفس هذا الرأي يؤيده حسن حنفي (١٩٩٥) والذي يرى أن رواية أولاد حارتنا ليس فيها ما يستحق المنع والتحريم، لأن موضوعها وغايتها قد تم التعبير عنهما من قبل ومن بعد في الروايـات السـابقة واللاحقة خاصة في "حكاية بلا بداية ولا نهاية" وفي "ملحمة الحرافيش" [2]. ولعل ما سبق يؤكد أن تناول ملحمة الحرافيش بالدراسـة خاصـة شخصياتها البارزة يؤكد حقيقة أن نجيب محفوظ قد وصل إلى القمة في التعبير عن فلسفته والتي عبرت عن المدى القائم بين الحقيقـة العامـة والحقيقة الجوهرية بين الوجود والماهية، بين العالم المعـاش وعـالم الفكر المثالي، هي أنشودة بحث ومعاناة عن تحقيق العدالة والكمال في الحارة "المحملة بالرموز"، وتمتلئ الرواية بنفس ملحمي يسـرد قصـة حياة البشرية والتي من المجهول ولدت وإلى المجهول تسير من خلال إيقاع وتكثيف وإيحاء الصورة الشعرية في سرد وقائع الأحداث ونماذج الشخصيات، وتمعن من حين لآخر تأملات غايـة فـي العمـق عـن تراجيديا الفراغ الإنساني بكل جوانبها من المـيلاد والمـوت، الحـب والكراهية، الخير والشر، والفتنة والغواية والهداية.

---

(١) يحيى الرخاوي: "قراءات في نجيب محفوظ"، الهيئة المصـرية العامـة للكتـاب، ١٩٩٢ (ص ٩١ : ١٩٥٦).

(٢) حسن حنفي: "السقوط والخلاص" قراءة في رواية – أولاد حارتنا لنجيب محفوظ مجلد عـالم الفكـر، المجلد ٢٣، العددان ٣،٤ يونيه ١٩٩٥ (ص٢٨٣ : ٣١٧)- الكويت.

كل ذلك قد ألبسه ثوب الشخصيات، ومن خلال معالم واضحة ورمـوز غاية في الدقة والروعة والمعنى مثل: التكية والسور العتيق، البوظـة، الزاوية، السبيل، حوض الحمير، دكان شيخ الحارة، المقابر والخـلاء، والأناشيد التي أوردها بلغة فارسية والتي تحمل معاني صـوفية عـن المأساة والملهاة في حياة البشر، ثم الفتوات ومراحل فوزهم وهـزيمتهم وهكذا. مما يجعلنا نُقر أن ملحمة الحرافيش ما هي إلا بانوراما للوجود الإنساني يحمل وجهة نظر فلسفية [١]. ومحفوظ خريج فلسفة –ولكـن من خلال تضفير هذه الآراء المجردة ثوب شخصـيات حيـة نابضـة بالحياة والحركة ورغم خطورة هذا العمل – من وجهة نظرنا- إلا أننا لم نعثر إلا على دراستين قد تناولتاه.

الأولى: دراسة نقدية حيث تناول "السيد فضل" صـوت الـراوي فـي ملحمة الحرافيش، حيث تكشف القراءة عن وجود صوتين يتميز أحدهما عن الآخر، ويمكننا أن نوزعهمـا علـى الثنائيـة التقليديـة: ذاتهـا وموضوعية، أو: غنائي وملحمي، أو: شخص ولا شـخص، بعبـارة أخرى أننا أمام روايتين نسمع عنهما لغتين متميزتين من لغات السـرد والحوار ولسنا أمام بناء فني يمثل ثنائية الكاتب والقارئ المعروفة [٢].

وواضح أن هذه الدراسة القصيرة تمثل الجانب النقدي واللغوي وإن كنا لا ننكر أثرها إلا أنها لا تشبع فهمنا إلى الدخول إلى سراديب هذه الملحمـة،

---

(١) عبد الرحمن أبوعوف: "الرؤى المتغيرة في روايات نجيب محفوظ"، الهيئة المصرية العامة للكتـاب، ١٩٩١، (ص ٥٥ :٥٩)- القاهرة.

(٢) السيد فضل: "كان -صوت الراوي- الدراسة في ملحمة الحـرافيش"، منشـأة المعـارف، ١٩٩٣ – الإسكندرية.

والتي جعلها محفوظ على عشرة أجزاء فيها قدر كبير من التوازي والتناسب الكمي، إضافة إلى أن كل جزء قد أخذ وصف الحكاية، مستثيراً وجدان القارئ بوضع عنوان لكل حكاية على حدة متتبعاً خطى كتّاب الملاحم في التراث القديم في الغرب والشرق.

الثانية: الدراسة التي قدمها "يحيى الرخاوي" عن (دورات الحياة وضلال الخلود ملحمة الموت والتخلق في الحرافيش) وقد تناول بصفة عامة أهم الانطباعات الكلية عن الملحمة مركزاً على فلسفة الموت والفناء وأنواعه ودلالته من خلال اقتطاف العديد من العبارات التي تؤكد ذلك خاصة فلسفة جلال -جل جلاله- الحكاية السابعة من ملحمة الحرافيش، مذكراً أن هذه الدراسة ما هي إلا بداية لدراسات تالية، وقام -في نهاية الانطباعات- بسرد العديد من العناوين التي سوف يتناولها لاحقاً بالدراسة [1].

ما عدا ذلك لم يطلع الباحث -في حدود علمه- على دراسة مستفيضة قد تناولت هذه الملحمة.

لماذا شخصيات ملحمة الحرافيش؟

إن الملحمة -كما ذكرنا- تتناول حياة العديد من الشخصيات وبانوراما الحياة الإنسانية.

وسوف نحاول جاهدين -قدر إمكانياتنا- تناول حياة الشخصية عبر مراحل تطورها المختلفة، كما جاءت في نص الملحمة، موضحين أهم

---

(١) يحيى الرخاوي، مرجع سابق.

القراءات النفسية، وأهم الإحباطات والصدمات التـي تعرضـت لهـا، وانعكاس ذلك على البناء النفسي للشخصية/الحرافيش/ الصفوة:

(أ) الحرافيش:

هم فئة من الشعب تمثل المطحونين/ المنبوذين، كما أن لهم تاريخـاً فـي مصر، فعلى سبيل المثال كان الحرافيش طائفة خطيرة في القاهرة وقد بلغ عددهم أربعة آلاف حرفوش، ولهم شيخ يطلق عليه اسم "شيخ الحرافيش"، وكان لهم سطوة حتى إنهم يجتمعون ومعهم شيخهم ويذهبون إلى القلعـة في المواسم والأعياد والمناسبات وهي كثيرة جداً، ويقفون تحت السـور لطلب العادة وهي بعض أرغفة الخبز ورطلان من اللحم لكل حرفوش مع دينار ذهبي على الأقل ولا ينصرفون إلا إذا أخذوا العادة. وكان بعـض السلاطين ينزل إليهم من القلعة ليفرقوا عليهم الأموال ويعرفـوهم حتـى يعودوا إلى أماكنهم على أبواب المساجد الكبيرة [١].

ولذا فإن الحرافيش يمثلون فئة المطحونين، الذين قد يستجيبون سلبياً لكافة أحدث المجتمع، إنهم أكثر كسلاً، يؤمنون بالقضاء والقدر وهم في الوقت نفسه يتمتعون بالصفات الأصيلة للشعب المصري مثـل: خفـة الـدم، الإخلاص النادر، طيبة ابن البلد، التواضع.

كما يجب أن نفرق بين الحرافيش والمجاذيب والمهمشين، إذ إن المجاذيب رزقهم على ا ولا شأن لهم بالسلطان وهم لا يطلبون كسوة ولا لحمـاً، وبعضهم يلبس الخيش ويعتمدون في طعامهم على النذور، [٢] كما أنهـم

---

(١) عبد المنعم شمس: "حرافيش القاهرة"، دار المعارف، غير مبين سنة النشر، القاهرة.

(٢) فاروق خورشيد: "المجذوب"، مكتبة الدراسات الشعبية، العدد ٤، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٦- القاهرة.

يختلفون أيضاً عن "المهمشين" وهم الفئات التي تعيش علـى أطـراف البلدان، ولهم سمات سيكولوجية معينة [٣].

(ب) الصفوة:

وهم تلك الفئة القليلة من النـاس التـي تحظـى بـالكثرة مـن القيمـة السائدة.والقيمة هي ما يتكالب عليه الناس في عصر ما. ويمكن تصـنيف القيمة إلى ثلاثة مستويات: أدناها المال أي السيطرة علـى المـادة، ثـم السلطة أي السيطرة على الناس الذين يسيطرون على المادة، ثم الاحترام أو المجد أي السيطرة على الناس الذين سوف يسـيطرون علـى المـادة آجلاً. والإنسان يبدأ بالسعي نحو الإشباع المادي (الجسدي/ البيولـوجي) أولاً. فإذا ما أشبعه بحث عن السلطة، فإذا ما أشبع هذا الاحتياج بحث عن الاحترام [١]. وإذا كانت فئتاً: الحرافيش والصـفوة تمـثلان الطـرفين المتناقضين أو طرفي العلاقة، فبين هذا تقـع الفئـة الوسـطى، فئـة الموظفين ومن يعملون في الدواوين الحكومية. وقد اهتم محفوظ أيضـاً بهذه الفئة، إلا أنه في ملحمة الحرافيش ورغم إظهاره لهذه الفئـات أو التشكيلات الثلاث، إلا أنه في الملحمة تجد أن فئة الموظفين قليلة إن لم تكن نادرة فلم يظهر على سبيل المثال في الملحمة من قبل السلطة غير "فؤاد عبد التواب مأمور القسم، وشيخ الحارة منـدوب السـلطة" لكـن الحارة كانت مكتظة بقلة من الصفوة، وكثرة من الحـرافيش، والـذين

---

(٣) أحمد خيري حافظ، محمد سيد خليل: "في سيكولوجية الجماعات الهامشية دراسات ميدانيـة"، الناشـر غير مبين، ١٩٨٨- القاهرة.

(١) محمد محمد شعلان: "الطيب إنساناً.. محاضرات في العلوم الإنسانية للطبيب"، ١٩٨٤، الناشـر غيـر مبين (ص ١٠٥ : ١٢٠)- القاهرة.

يهللون دوماً بالعدل والسماحة والأخلاق على عكس تهليل الصـفوة أو فئة الأثرياء والذي كانوا يهللون "للفتوة الباطجي" ولهذه التحولات [٢].

تعريف الشخصية في علم النفس:

يكاد أن يكون مفهوم الشخصية الموضوع الأول والأخير في علم النفس، ورغم ذلك لا نجد اتفاقاً بين علماء النفس على تعريف محدد للشخصـية، كما أن التعريفات التي قدمت لمفهوم الشخصية كثيرة ومتنوعة، ويندرج بعضها من التعريفات الدارجة الأقل تحديداً وشـمولاً، إلـى التعريفـات العلمية الأكثر تحديداً وشمولاً.

ولعل أهم التعريفات التي قدمت لمفهوم الشخصية ذلك التعريف الذي قدمه جوردن ألبورت Gordon Allport، والذي أجرى عليه عدة تعديلات. وهذا التعريف هو: الشخصية هي التنظيم الـديناميي لأجهـزة الفـرد النفسجمية Psychophysical التي تحدد أوجه توافقه الفريد مع بيئتـه [١].

ونظن أن هذا التعريف يفي بالغرض ويتبناه الباحث في هذه الدراسـة وإلى القراءة النفسية لأهم شخصيات ملحمة الحرافيش[٢].

---

(٢) انظر على سبيل المثال:

- Erikson, E.H (١٩٦٣): Childhood and Societg, New York, W.W. Norton ٢nd, Ed.
- Erikson, E.H (١٩٦٨): Identity: Yorth and crisis. New York, W.W. Norton.
- Erikson, E.H (١٩٨٢) The life cycle complete: Areview, New York, W.W. Norton.

(١) فرج عبد القادر طه: "الشخصية ومبادئ علم النفس"، مكتبة الخانجي، ١٩٧٩ (ص١١ :١٦)، القاهرة.

(٢) نجيب محفوظ: "ملحمة الحرافيش" الطبعة الرابعة، ١٩٨٥، مكتبة مصر، القاهرة -وهي الطبعة التـي اعتمدنا عليها في الدراسة.

أداة البحث:

تستخدم هذه الدراسة تحليل المضمون Content Analysis مع العلـم بأن هذه الأداة تمثل أداة مهمة في عملية الاتصال Communication Process. ونعني بمادة الاتصال كل المعاني التي يعبر عنها بالرموز المختلفة (الكلمة - الصوت - الصـورة - الرسـم). وهنـاك جملـة كلاسيكية تصف عملية الاتصال في مجملها بأنها معرفة من الذي يقول ماذا؟ ولمن؟ وكيف؟ والآثار التي تترتب على ذلك.

وقد استخدم تحليل المضمون فـي مجـال الأدب سـواء كـان ذلـك سسيولوجياً أو سيكولوجياً، حيث يزداد الاهتمام بدراسة الظاهرة الأدبية ومدى انعكاسها لما يمور به المجتمـع أو حتـى نفسـيات الأدبـاء أو المتلقين. فمثلاً من الناحية الاجتماعية حيث تباينت العلاقة بـين الأدب والمجتمع ومدى استفادة الباحث الاجتماعية من المادة الأدبيـة بقصـد توضيح مواكبته لظواهر الحياة الاجتماعية والقضايا الجماهيرية، ولعل من أشهر الدراسات التي تناولت الأدب من منظور اجتماعي الدراسـة الرائدة للسيد ياسين لقصة يوسف إدريـس "العيـب" وكـذلك التحليـل الاجتماعي لرواية الأرض والفلاح (عبد الرحمن الشرقاوي) وغيرهـا من الدراسات.

ويبدو أن أهم الدراسات التي أجريت في مجال الأدب وعلم النفس كثيرة وقد مرت بالعديد من المراحل. حيث فـي البدايـة اسـتخدم التحليـل للمضمون للإجابة عن التساؤلات العديدة التالية:

- كيف ينعكس بناء شخصية الأديب على ما يكتبه؟

- كيف تختلف القيم المتضمنة في الرواية في بلد معين عن تلك القيم في بلد آخر وفي فترة زمنية محددة.

- كيف ينعكس البناء النفسي أو الطابع القومي لبلد ما في أعماله الروائية والقصصية؟ وقد لفت النظر "فرويد" إلى هذه الأعمال الأدبية بل قام بنفسه بتحليل العديد من النماذج الروائية والقصصية لكي يدلك على أن الأعمال الأدبية ما هي إلا انعكاس لما تمور به نفس المبدع.

ثم جاءت مرحلة البنيوية وهي أكثر اتساعاً للنص الأدبي، وأن مهمة الأديب أو المبدع تنتهي بمجرد أن يقدم عمله ويمكن للمتلقي أن يفهم ما وراء النص، ولذا لا تكون هناك قراءة واحدة "متفق" عليها للنص، بل يمكن أن تتعدد القراءات بتعدد المتلقين ثم جاءت مرحلة ما بعد البنيوية أو التفكيكية والتي تهدف إلى الانطلاق من قاعدة أنه من البدء كان الاختلاف، ولذا لابد من السعي إلى تفكيك النص ثم إعادة قراءته وفقاً لمنظورات متعددة.

والخلاصة أنه تتعدد المداخل النفسية/ القراءة للنص الواحد. وهذا الاختلاف لا غبار عليه. المهم أن تقدم الاتجاه الذي يتفق مع قراءة النص حتى لا نحمل "النص" أكثر مما يطيق.

تعريف تحليل المضمون:

تتعدد التعريفات التي تقدم لمفهوم تحليل المضمون. نذكر منها:

- تذكر دائرة المعارف الدولية للعلوم الاجتماعية أن تحليل المضمون هو أحد المناهج المستخدمة في دراسة مضمون وسائل الاتصال المكتوبة أو المسموعة بوضع خطة منظمة تبدأ باختبار عينة من مادة الاتصال (محل الفحص) وتحليلها وتصنيفها كمّياً وكيفّياً.

- وترى وجهة نظر أخرى أن تحليل المضمون هو مجرد أسـلوب أو أداة يستخدمها الباحث لتحليل معلومات معينة وذلك في إطـار مـنهج شامل هو منهج الدراسة المسحية.

والخلاصة أن لدينا حول مفهوم "تحليل المضمون" وجهتي نظر، حيـث إن بعض الكتابات العربية والأجنبية تعده "منهجاً"، وبعـض الكتابـات تعده "أسلوباً" من أساليب البحث العلمي. والباحث يميل إلى تبني وجهة النظر الثانية.

إجراءات التحليل:

تسير إجراءات التحليل وفقاً لعديد من الأسس مثل:

أولاً: إطار التحليل (ويقصد به المجال الذي سوف يقوم الباحث بإجراء تحليله من خلال). فقد يكون هذا الإطار مجموعة مـن الخطابـات أو القصص أو الروايات أو الصحف..إلخ.

ثانياً: عينة مادة التحليل: حيث يلجأ الباحث إلى تحديد الإطار المكـاني أو الزماني الذي سيختار منه عينة "عشوائية" للقيام بتحليلها إذ ليس من المنطقي القيام بتحليل كل ما قدم.

ثالثاً: فئات التحليل: وتتخاص هذه الفئات (والتي يجب أن تحدد بدقـة) في:

١ - فئة ماذا قيل ٢ - فئة كيف قيل.

رابعاً: وحدات التحليل: وقد يلجأ الباحـث إلـى الأسـلوب الكمـي أو الأسلوب الكيفي أو إلى الأسلوبين معاً أو قد يكتفي بأسلوب واحد.

وقد استخدم الباحث في هذه الدراسة أسلوب التحليل الكيفي. وبـالطبع يضيق المقام عن الاستفاضة في فنيات أسلوب تحليل المضمون، وتوجد العديد من المراجع العربية والأجنبية المتوفرة في هذا الصدد لمن أراد أن يستزيد.

(١)

شخصية عاشور الناجي

الحلم والأسطورة

مدخل:

شاء نجيب محفوظ أن يجعل شخصية عاشور الناجي مجهولة النسب إذ عثر عليه ليلاً وهو ذاهب لصلاة الفجر في الحسـين -الشـيخ عفـرة زيدان، الضرير، الشيخ الطيب. زوجه لا تنجب- وحين عثـر عليـه اختار أن يعود به إلى البيت دون أن يذهب إلى صلاة الفجر، كما أنـه تردد في قبول نصائح الآخرين في أن يذهب إلى القسم، وقـد سُـرت زوجته -سكينة- بهذا اللقيط، وزاد سرورها أكثر حين علمت أنه ذكر، ثم دخلا في مرحلة صراع بين البقاء بالوليد المجهول وبين إبلاغ القسم عنه، بين الاحتفاظ به وبين التخلص منه.

"تمتم الشيخ عفرة زيدان":

- أليس من الخطأ أن نبقيه أكثر مما ينبغي؟

فقالت بحماس وحرارة:

- الخطأ خطأ من ضيعه.

ثم قالت وهي تتلقى إلهاماً بالرضا:

- لم يبق لي أمل في الإنجاب!

فحسر العمامة عن جبهته البارزة مثل قبضة الجندرة وتساءل:

- فيم تفكرين يا سكينة؟

فقالت ثملة بإلهامها:

- يا سيدنا الشيخ وهبني ا   رزقاً فكيف أرفض؟

مسح بمنديله عينيه المطبقتين ولم ينبس فقالت بظفر:

- أنت نفسك تريد ذلك. (٨ : ٩)

ثم يصمت الشيخ الطيب، وتندفع زوجته في إطلاق اسم أبيها اسماً على "اللقيط" الجديد: "ليكن اسم أبي اسماً له، عاشور عبد ا ، وليشـمله ا ببركته ورضوانه. وارتفع صوت الشيخ عفرة بالتلاوة" (ص٩).

ويذكرنا ما سبق بقول شكسبير:

"ما قيمة الأسماء؟

هذي اسمها زهرة

سمها ما تشاء

سوف تبقى عطرة" شكسبير (روميو وجوليت)".

ورغم أن الطفل الإنساني لابد أن يكون معلوم الهوية إلا أن حالة "شاذة" مثل حالة المسمى "عاشور عبد ا " تطرح العديـد مـن التسـاؤلات، الأول: أن الأطفال مجهولي الهوية أو اللقطـاء يعبـون عـن أزمـة اجتماعية وأخلاقية ونفسية وتعني تخلي كل طرف عن مسئوليته، وإلقاء ثمرة لقاء آثم إلى الطريق خشية الفضيحة، وهنا تلعب الأقدار دورهـا في تبني الطفل وإلقائه في إحدى دور الرعاية أو الملاجئ -حيـث إن التبني في الإسلام حرام- وينوب على رعايتـه سـيدات قـد تكـون شخصيتهن غير سوية ومهزوزة، وقد يفتقدن إلى الرعاية والحب ممـا

ينعكس بدوره على هؤلاء الأطفال، والذين يدركون هويتهم مما يجعلهم يشعرون أنهم منبوذون ومن ثم يكونون فريسة سهلة للجوء إلى الجريمة كنوع من الانتقام من المجتمع.

هذا ما اجتمعت عليه الآراء.. ولكن، هل هذا سيكون مصير الناجي؟!

الثاني: أن هذا اللقيط مجهول الهوية قد يعبر عن معنى فلسفي وهو: أن الرموز العظيمة والنبيلة مجهولة الأصل والهوية، فعاشور رمز العدل، والحلم، والرحمة، راعي الحرافيش، قاهر الباطجية سوف يتردد صداه في أنحاء الملحمة كرمز للحاضر/ والغائب بغض النظر عن هويته.

الثالث: أنه يؤكد المعنى الشعبي "اعمل الخير وارميه البحر" أو "أن الإنسان ليس بأصله ولكن بأفعاله" أو "أنك لا تكون إنساناً إلا بقدر ما أضفت من قيم ومثل إلى الحياة" باختصار أن "الهوية المجهولة لعاشور عبد ا " تؤكد كل هذه المعاني النبيلة.

الرابع: أنه يثير قضية البيئة والوراثة بأفضل صورها وأعقد أشكالها. فشتان مثلاً بين صورة الشيخ عفرة زيدان وصورة أخيه "درويش زيدان"، وكذا شتان ما بين صورة عاشور الناجي ودرويش زيدان.

فرغم أن البيئة والثقافة واحدة إلا أنها أفرزت رمزين: رمز الخير ورمز الشر. وإذا كانت أهمية أسلوب التربية المبكرة وانعكاس ذلك في تكوين نمط معين مميز للشخصية فلا شك أن طفولة عاشور الناجي مهمة جداً إذا كان يقوم بتنظيف البيت، وشراء الحوائج من السوق ويمضي كل فجر بولي نعمته إلى الحسين، ويملأ الدلو من البئر، ويشعل الفرن، وعند الأصيل يجلس عند قدمي الشيخ فيحفظه من القرآن، ويلقنه آداب السلوك والحياة (ص١١)، تلقين مع قدوة وحب

متبادل بين الشيخ وعاشور، وحتى أن عاشور لم يهتز وجدانياً حينما صاح بالحقيقة "ليس عاشور بأخي" (ص١١) كما أنه استلهم نصائح ولي نعمته الشيخ خاصة قوله "لتكن قوتك في خدمة الناس لا في خدمة الشيطان" (ص١٢) فإذا انتقلنا إلى مراهقته وما أدراك ما قيمة مرحلة المراهقة تلك "الفورة التي تجتاح أرجاء الفرد" فنجد أن عاشور قد نما من الناحية العضلية نمواً هائلاً، إذ أضحى: طوله فارع، عرضه منبسط، ساعده حجر من أحجار السور العتيق، ساقه جذع شجرة توت رأسه ضخم نبيل كما أنه من الناحية العقلية تقبل حقيقته إذ "صدق ما قيل له من أن الشيخ تكفل به بعد وفاة والدين طيبين مقطوعين من شجرة" (ص١٢).

أما عن العمل فهناك عدة محاولات لذلك:

١ - إذ أعلن الشيخ رغبته في أن يجعله مقرئاً للقرآن مثله، ولكن وضح له أن حنجرة عاشور لا تسعفه بحال. (ص١٢).

٢ - حاول درويش زيدان أن يستغل قوته وأن يجذبه إلى عالم السرقة والسطو إلا أن عاشور رفض ذلك بل أفلت الضحية من قبضة درويش (ص١٤:١٩).

٣ - حاول أن يدخل إلى سور التكية لكي يقوم بخدمتهم (أي خدمة الدراويش) إلا أنه لم يجد الرد. ففتر حماسه (ص٢٠).

٤ - عرض عليه أن يعمل ضمن رجال أحد الفتوات إلا أنه رفض بحجة أنه لا قلب له بذلك (ص٢١:ص٢٢).

٥ - عمل مكاريّاً، وأثبت أنه أهل للثقة (ص٢٢:٢٥).

٦ - بمرور الزمن ابتاع بنقوده ونقود زوجه كارو فترقى من مكـاري إلى سواق (ص٢٧).

٧ - استقرت به الأمور أخيراً إلى وضع قواعد جديدة "للفتوة" إضـافة إلى عمله كسائق وقد "أقام فتوته على أصول لم تعرف من قبل.. كمـا ألزم كل تابع من أتباعه بعمل يرتزق منه، وبذلك محق البلطجة محقاً. ولم يفرض الإتاوة إلا على الأعيان والقادرين لينفقهـا علـى الفقـراء والعاجزين" (ص٨٨).

أما عن رحلة البحث عن ذاته من خلال رحلة البحث عن نصفه الآخر فنجد أن عاشور قد تزوج مرتين بامرأتين:

الأولى: فرضها عليه المعلم زين (والذي كان يعمل لديه مكارياً) وتدعى زينب وكانت تكبره بخمس سنوات، ولم تكن تماثله في دماثته، كانـت عصبية، سيئة الظن، طويلة اللسان، ولكنها كانت مثـالاً طيبـاً للجـد والاجتهاد والوفاء (ص٢٧) كما أنها كانت متوفية الأم، ولذا سـارعت زوجة أبيها إلى إقناع أبيها بضرورة "التخاص" منها حتى تتيح الفرصة لبناتها لكي يتزوجن، وقد أنجبت له: حسـب ا ، رزق ا ، منـة ا (ص٢٧).

الثانية: فلة، وهي لقيطة (ص٣٧)، مجهولة الأب والأم مثله (ص٥٢). وقد تزوجها رغم دهشة درويش زيدان لأنها كانت "مشاعاً" لكل زبائن البوظة، وقال البعض عنه ساخرين "أراد أن يهرب أولاده من البوظـة فخلى بها" (ص٤٧).

أي أن الزواج الأول تم بصورة روتينية لا دخل له فيـه. أمـا الثـاني فوضح عنصر الاختيار، إنه لقيط مجهول الهوية، ويجـد مـن نفسـه

الرغبة إلى الارتماء في أحضان الهوية مثله بالرغم من أن أولاده كانوا السبب في رؤيته لفلة وعزمه على الاقتران بها.

ثم تتابع الأحدث، فتحدث الشوطة أو الطوفان فتبزغ في رؤاه ضرورة الهرب، فيرفض ذلك شيخ الحارة وزوجه الأولى وأولاده ويهرب بفلـة وشمس الدين، ويكون هو وأسرته الناجي الوحيد لذا سـمي بعاشـور الناجي (ص٧٤). وهذا يؤكد مرة أخرى ما سـبق أن قلنـاه مـن أن المعاني السامية قد تكون مجهولة الهوية تماماً مثلما هـو الحـال فـي حالتي عاشور أو فلة.

أما الإحباطات التي واجهها عاشور عبر رحلته فنجدها كثيـرة وكـان أهمها أنه تيقن من أنه مجهول الهوية، إلا أنه لم يرفض ذلك، بل على العكس تفتحت مداركه للحياة، وأدرك الجانب الآخر لها وقـال بنبـرة صادقة "الأشرار معلمون قساة وصادقون. خطيئـة أوجدتـه، تـوارى الخطاة، ها هو يواجه الدنيا وحده" (ص١٩: ٢٠).

وقد تعامل مع هذه الخبرة الصادقة بأنه استمع إلى أناشيد التكية بحـب، وبدلاً من أن يحقد على الآخرين، اتسع قلبه، وتسامى برغباته الشريرة وحمل الحب لكافة الإنسانية، ومن هذا المنطلق لم يتردد في أن يتزوج فلة رغم علمه بسلوكها والمكان الذي أخذها منه، وحين رأى الحلم وأن الشيخ عفرة زيدان ينصحه بالهرب من الشوطة لم يتردد وعرض على شيخ الحارة وزوجه الأولى وأولاده فكرة الهرب، ورغم الاعتراض إلا أنه نفذ فكرته وهرب. انظر إلى فلسفة الوضوح والمقاومة.

- وهل الموت يعاند يا عاشور؟

فقال وهو يحني رأسه في حياء:

- الموت حق والمقاومة حق.
- ولكنك تهرب!
- من الهرب ما هو مقاومة!
فتساءلت في قلق:
- وكيف نعيش في الخلاء؟
- الرزق في الساعدين لا في المكان.
فتنهدت قائلة:
- سيضحك الناس من جهلنا.
فقال بوجوم:
- لقد جفت ينابيع الضحك. (ص٥٨:٥٩)
ردود واضحة، وتفكير صائب غير تقليدي لمواجهة الأمور، وحين عاد وضعف أمام دار البنان براياتها وتحفها ونعيمها لم يتردد وعاش فيهـا وحين طلب منه شيخ الحارة الجديدة "عم محمود قطائف" أن يبرز مـا يثبت ملكيته لها، كان حاسماً أيضاً في ردوده (ص٨٠:٨١) كما دافـع عن نفسه أمام القضاة وسجن لمدة عام إلا أن ذلك لم يقلل مـن حـب الناس له، بل لعل السجن خلق منه أسطورة(ص٨٤).
ثم حصل على حب جارف من كافة الحرافيش والذين وقـف بجـانبهم وساعدهم وييسر أمورهم (ص٨٦:٨٨). وقد أكد ذلك حين تولى الفتونة بلا منازع ووفق أسس جديدة (ص٨٨).
ولكن هناك أمرين يلفتان النظر في هذه الشخصية:
الأول: أنه قد بعث برسالته وهو في الأربعين "كان يحمل فوق كاهلـه أربعين عاماً وكأنها هي التي تحمله في رشاقة الخالدين" (ص٢٩).

كما أنه واظب على الاستقامة (ص٢٨) علماً بأنه في هذه السن ينتـاب الإنسان أزمة منتصف العمر إذ يواجه كافة إنجازاته ويعيد النظر فـي بعضها، وقد يعجز عن ذلك فيقع فريسة للمرض النفسي ولكن الأمـور في شخصية عاشور الناجي كانت واضحة لأنه بداية تقبل كل شـيء، الحياة بجانبها الخير (إبان فترة تنشئته على يدي الشيخ عفـرة زيـدان وزوجه السيدة سكينة أو بجانبها الشرير على يد درويش زيدان وكافـة صنوف الحياة) بيد أنه اختار وحسم الاختيار، كبت شـهواته، وتقبـل حقيقة أنه لقيط. وقد عبر محفوظ بحدسه الصادق عن ذلك حـين قـال عاشور لنفسه: "لا تحزن يا عاشور فلك في الدنيا أخوة لـيس لعـددهم حصر" فالقضية في العلاج النفسي هـو أن يتقبـل الإنسـان حقيقتـه، يصارح نفسه بما يدور بداخله، يستبصر بحقيقة نوازعه ورغباته.

باختصار يملك السيطرة على كل أفكاره حتى لا تتعرض للكبت ومـا يخلفه في النفس من إثارة قد لا تضمحل.

الثاني: أن عاشور قد اختفى فجأة وهو في الستين من عمـره وفشـلت جميع محاولات العثور عليه (ص٨٩:٩٤). فماذا يعني هـذا الاختفـاء وما دلالة هذه السن؟

ولعل الاختفاء يعني تحديه لقبضة الموت، كما أن الاختفاء جدّياً لا يعني أبداً اختفاء ما أسسه هذا الشخص من قيم وأخلاقيات وهذا يؤكد القـول الشعبي "إن السيرة أبقى وأطول عمراً" ونكتفي بذلك دون الدخول فـي تفسيرات دينية من قبيل أن الاختفاء يعني أنه رفع مثل سـيدنا عيسـى عليه السلام، أو أن الرسول محمد (ص) قد مات وهو في الستين مـن عمره.

لكن دلالة هذه السن -كما يمكن أن تكون- أنها تعبر عن جوهر وجود الإنسان ككائن حضاري له تاريخ ينقله عبر الأجيال بالتعليم ومن خلال مجتمع في مقابل العالم الغريزي، أنها مرحلة تكامل الذات، وهي المرحلة الأخيرة في حياة الإنسان فهي اختيار المدخل إلى الأبد به حيث يستعد الإنسان لممارسة وجوده في كينونته.

ولذا فإن هذا الاختفاء إنما يعني اختفاء الرضا عن النفس -بعد أن تأكد من أن الآخرين قد وعوا الرسالة والدرس- ولذا فقد أكد مقولة تينيسون Tennyson في وصفه موت الملك آرثر:

"لابد للقديم أن يترك مكانه للجديد لئلا يتحول الخير إلى عفن وكيد"

ولذا فإن هذه الشخصية العظيمة ظلت الحاضر/ الغائب/ المسيطرة على كافة أحداث الملحمة، يتذكره الجميع حين يكون العدل، ويتذكرها بعنف حين تحل القسوة، وتعربد القوة، أو يقع الجزاء العادل بمن خان العهد ولننظر على سبيل المثال -لا الحصر- حين حدث البلاء بجلال إذ "قال الحرافيش إن ما حل بجلال هو الجزاء العادل لمن يخون عهد الناجي العظيم من ينسى دعاءه الخالد بأن يهبه ا القوة ليجعلها في خدمة الناس، وعندما يخون حفدة الناجي عهده تحل بهم اللعنة ويفتك بهم الجنون"(ص٤٤٢)

كما أن عاشور الناجي من جهة أخرى قد تحول إلى بطل أسطوري نتيجة لقهر الواقع، وسطوة الظلم، وسيطرته على مجريات الأمور، وهي أمور مرشحة لميلاد البطل في السيرة الشعبية [١].

---

(١) انظر على سبيل المثال:

(٢)
شخصية درويش زيدان

إنه الشخصية المناقضة تماماً لشخصية عاشور الناجي، وكذا شخصـية شقيقه الشيخ عفرة زيدان. فالهوية واضحة له أب وأم -مثله مثل معظم الأطفال- كما أنه انحدر من نفس الأب والأم اللذين انحدر منهما شقيقه الورع عفرة زيدان، ولكن شتان ما بين سلوك كل منهمـا. ورغـم أن محفوظ لم يورد الكثير عن حكايته، إلا أن القليل الذي ذكره كان محملاً بالدلالات، مشبعاً بالمعاني.

كما أن طفولته والبيئة التي نشأ فيها كانت حرية بأن تجعل منـه تقيـاً وورعاً مثل شقيقه، إلا أنه لم يمتثل ومضى في طريق اللذة العاجلـة، والتمرد على قيم المجتمع، مما يثير بحق كافة النظريات والاتجهـادات التي ذكرها من تصدى لدراسة السلوك السيكوباتي وسوف نلمح العديد من الإشارات التي أشارت إلى طبيعته السيكوباتية:

١ - أن الشيخ عفرة زيدان -شقيقه- حين عاد من صلاة الفجر بعاشور "هبط من السلم درويش زيدان ثمل الجفون من أثر النوم وهـو يقـول: جوعان يا امرأة أخي" (ص٩).

وتؤكد هذه العبارة على أمرين:

الأول: عد التزامه الديني مثله مثل شقيقه.

(أ) نبيلة إبراهيم سالم: "البطولة في القصص الشعبي"، سلسلة كتابك، دار المعارف العدد رقـم ١٠، ١٩٧٧ القاهرة.

(ب) أحمد شمس الدين الحجاجي: "مولد البطل في السيرة الشعبية"، كتاب الهلال، العدد ٤٨٤ أبريل ١٩٩١- القاهرة.

الثاني: تفضيله اللذة العاجلة: النوم/ الطعام.
٢ - أنه بلغ العشرين ولم يتزوج، وإذا كان الزواج يفيد الاستقرار، فإن عدم الزواج يشير ضمن ما يشير إلى عدم الاستقرار وإلى عدم الرغبة في التخلي عن السلوك النرجسي والاندماج في شخص آخر، أو حين سأله شقيقه عن السر في عدم زواجه بالرغم من بلوغه سن العشرين، كما أنه موفو الصحة والمال رد عليه بعبارات غامضة "عندما يشاء ا "(ص١٠) وكررها عدة مرات.
٣ - أنه كان كثير المشاجرات مع أقرانه والآخرين، ويؤكد ذلك عدم امتثاله لقيم ومعايير المجتمع، إضافة إلى تفضيله النشوة واللذة العاجلة، كما أنه كان يبدأ بالمشاجرات ولا تنتهي إلا بحدوث بعض الندوب والجروح في وجهه، وحين عاتبته شقيقته:
- أتقلد أهل العنف والشر؟
- أحياناً يتحرش بي أهل الشر فأدافع عن نفسي.
- يا درويش لقد نشأت في بيت خدمة القرآن وشرفه وعزته.
ألا ترى إلى سلوك أخيك الطيب عاشور؟
قال بحدة: ليس عاشور بأخي. (ص١١)
٤ - أن درويش رفض كل فرص التعليم والمثابرة والاقتداء بسلوك أخيه "رفض التعليم قلبه. انطلق إلى العالم غلاماً طرياً فتربى في أحضان المرارة والعنف قبل أن يستقيم عوده، قبل أن تتشرب روحه بالصلابة والنقاء" (ص١٢) وهذا يؤكد طبيعة السلوك السيكوباتي الذي يرفض التأجيل ويتوحد دوماً إلى الاقتناص، إنه باختصار "سلوك أولاد الشوارع".

٥ - السخرية الشديدة من القيم والأشخاص الملتزمين، نجد ذلك حين أراد الشيخ عفرة زيدان أن يجعل من عاشور مقرئاً للقرآن فضحك درويش ساخراً (والسخرية في التحليل النهائي ما هي إلا عدوان ضد الآخرين) وقال معلقاً على رغبة شقيقه:

- "ألا ترى أن هيكله الضخم جدير بأن يلقي الرعب في قلوب المستمعين؟!"(ص١٢).

٦ - عدم ارتباطه بالآخرين، خاصة إذا كانوا من النوع الطيب وقد اتضح ذلك في حواره مع عاشور عقب وفاة شقيقه عفرة زيدان، وانتقال زوجه إلى قريتهم (ص١٣:15).

٧ - اتضح أن درويش كان يكذب على شقيقه وأنه ما كان يعمل حمالاً كما أوهمه بل قاطع طريق، لصاً، هجاماً(ص١٩).

٨ - أنه حاول أن يجذب عاشور إلى طريقه مستفيداً من ضخامته الجسدية إلا أن عاشور رفض وكانت النتيجة سيولاً من سباب وإيذاء بدين منه(ص١٦:١٩).

٩ - أنه لا يرتدع من العقاب، فقد غاب كثيراً عن عاشور، وحين سأله أين كنت أجاب باستهانة ساخرة "في السجن" ثم مؤكداً على مقولة العقاب لا يفيد مع السيكوباتية "الجميع أشرار ولكني سيئ الحظ" (ص٣٠)

وقد وجدت العديد من الدراسات التي تتناول بالدراسة سلوك فئة المجرمين مثل هذا الاعتقاد.

١٠- أنه يميل إلى فرض الإتاوات، وعدم الحياء، وممارسة البلطجة على الآخرين، يتضح ذلك حين علم بتحسن ظروف عاشور فقصده طالباً النقود والمأوى فأعطاه الأولى ورفض الثانية (٣٠:٣١)

١١- أنه بنى "بوظة" في الحارة، ورغم أن عاشور ظن في البداية أنها بيته إلا أنه سخر منه قائلاً "سيكون بيت من لا بيت له" (ص٣٢) ولعل البوظة ترمز إلى اللذة/ عدم الالتزام بالقيم، باختصار: السلوك المناقض للسلوك القويم.

١٢- انضمامه ولجوؤه إلى شلة البلطجية والفتوات حتى يحقق لنفسه الحماية.

١٣- عدم التزامه، ويتضح ذلك حين وجد "فلة" اللقيطة وجعلها "مومساً" في البوظة، وجمع بين البوظة وعمله قواداً (ص٤٠) وهي جميعاً أساليب وسلوكيات وإن تنوعت - تؤكد السلوك السيكوباتي.

إلا أن أهم أمرين في شخصية درويش هما:

الأول: علاقة التأثير والتأثر، فقد علم درويش الشر لعاشور، ورغم أنه لم يمارسه ورفض ذلك مقتدياً بمقولة سيده "عفرة زيدان" (لتكن قوتك في خدمة الناس لا في خدمة الشيطان) إلا أن درويش قد تعلم أيضاً من عاشور حين اختفى من مواجهة الشوطة" عملت بحكمتك فهاجرت إلى الخلاء. لم أكن بعيداً عنك طيلة الوقت" (ص٧٥) ويؤكد هذا على العلاقة التبادلية بين رمزي الخير والشر.

الثاني: أنه مع اختفاء عاشور الناجي اختفى درويش زيدان وخاصة بعد أن كثر الهمس في البوظة بأنه كان وراء الاختفاء "وما لبث أن حل محله عليوة أبو رأسين بياع النزل وكأن درويش لم يكن" (ص٩٥).

ويؤكد ذلك حقيقة وجود ارتباط الخير بالشـر، كمـا يـذكرنا ذلـك - ويؤكده- أسطورة تقول إن شيخاً قابل الشيطان ورأى الشيخ أن يقتله إلا أن الشيطان أخبره بأن وجوده بل وممارسة دوره كشيخ مرتبط بوجوده كشيطان حي طليق قادر على الإغواء، وأنه إذا مات انتهى دور الشيخ بالتالي إذ سيحذر الناس ممن؟!

وإذا كان درويش كشخص اختفى مع اختفاء عاشور النـاجي إلا أنـه شتان ما بين "خلود" الشخصيتين. فعاشور ظل يتردد طوال الملحمـة، في حين أن البوظة قد تناوب عليها العديد من الأشخاص (رموز الشـر واللذة والفسق) وكأن البوظة هي المكان والرمز الخالـد والأشـخاص الذي يتولون شئونها زائلون/ مجهولو الهوية. وعموماً فـإن شخصـية درويش زيدان تطرح قضية السلوك السيكوباتي، هذا السلوك الذي يعود الفضل فيه إلى بريتشارد (١٨٣٥) طبيب الأمراض العقلية الإنجليـزي حيث كان أول من أشار إلى وجود فئة كبيرة مـن مشـكلات الطـب النفسي التي لا تنطبق عليها التشخيصات المألوفة في الطب العقلي في ذلك الوقت، وظلت الاجتهادات تترى حتى تم تحديد أهـم خصـائص الشخص السيكوباتي وهي:

١ - فقدان الضمير أو عدم كفايته.

٢ - عدم النضج الانفعالي والتمركز حول الذات.

٣ - عدم وجود خطة طويلة الأمد للمستقبل.

٤ - الافتقاد إلى المثابرة والإصرار على الحصول على اللذة العاجلة.

٥ - العجز عن الحب والارتباط العاطفي، إضافة إلى عجزه عن حب الغير، كما أن عملياته الجنسية عمليات فسيولوجية بحتة لا تزاملها انفعالات الحب، وعارضة دون ارتباط أو ولاء أو احترام الشريك.

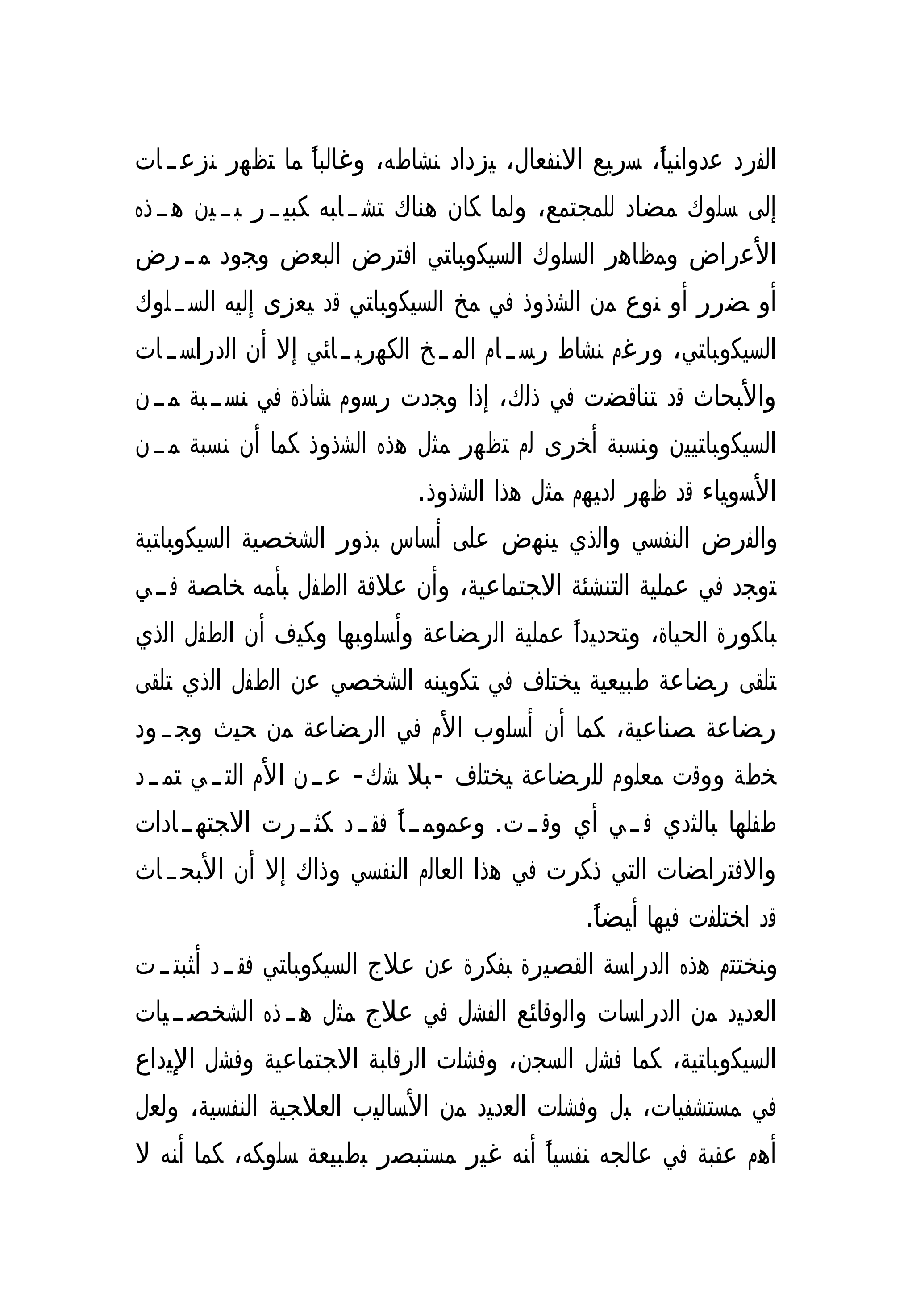
ويدخل في عداد السيكوباتيين عتاة المجرمين، ومدمنو الخمر والمخدرات، والمنحرفون، أو المتزمتون، والمشردون، البلطجية، والمتعصبون دينيّاً أو مذهبياً، والعاهرات، والمرضى بالكذب وما إلى ذلك. إضافة إلى العديد من السمات الأخرى التي تميز الشخصيات السيكوباتية[1].

ونظن أن كل ما سبق من سمات ينطبق على ما ذكرناه من "محكات سلوكية" ميزت شخصية "درويش زيدان" وبما أن سلوك "درويش زيدان" المنحرف وكذا العديد من النماذج "البلطجية" تندرج تحت هذا التصنيف من السلوك السيكوباتي أو ضد المجتمع Antisocial فيجب أن نشير بسرعة إلى العديد من الاجتهادات التي فسرت أسباب هذا السلوك.

وأولى هذه النظريات نظرية الفرض الوراثي والتي تؤكد أن هناك عاملاً جينياً يؤدي إلى انحطاط التكوينات الجسمية عند السيكوباتيين وهذا بدوره يؤدي على مظاهر السلوك السيكوباتي غير أن هذا الرأي لم تثبت البحوث صحته حتى الآن، أيضاً توجد نظرية فرض المخ الشاذ حيث بينت كثير من الملاحظات على الأطفال والبالغين أنه يعقب أي إصابة في المخ نتيجة لحادثة أو مرض تغيرات سلوكية، إذ يصبح

---

(١) سعد جلال في الصحة العقلية"الأمراض النفسية و العقلية والانحرافات السلوكية"،دار الفكر العربي،الطبعة ٢ ، ١٩٨٦،(٣٣١ : ٣٥٦)- القاهرة .



الفرد عدوانياً، سريع الانفعال، يزداد نشاطه، وغالباً ما تظهر نزعات إلى سلوك مضاد للمجتمع، ولما كان هناك تشابه كبير بين هذه الأعراض ومظاهر السلوك السيكوباتي افترض البعض وجود مرض أو ضرر أو نوع من الشذوذ في مخ السيكوباتي قد يعزى إليه السلوك السيكوباتي، ورغم نشاط رسام المخ الكهربائي إلا أن الدراسات والأبحاث قد تناقضت في ذلك، إذا وجدت رسوم شاذة في نسبة من السيكوباتيين ونسبة أخرى لم تظهر مثل هذه الشذوذ كما أن نسبة من الأسوياء قد ظهر لديهم مثل هذا الشذوذ.

والفرض النفسي والذي ينهض على أساس بذور الشخصية السيكوباتية توجد في عملية التنشئة الاجتماعية، وأن علاقة الطفل بأمه خاصة في باكورة الحياة، وتحديداً عملية الرضاعة وأساوبها وكيف أن الطفل الذي تلقى رضاعة طبيعية يختلف في تكوينه الشخصي عن الطفل الذي تلقى رضاعة صناعية، كما أن أسلوب الأم في الرضاعة من حيث وجود خطة ووقت معلوم للرضاعة يختلف -بلا شك- عن الأم التي تمد طفلها بالثدي في أي وقت. وعموماً فقد كثرت الاجتهادات والافتراضات التي ذكرت في هذا العالم النفسي وذاك إلا أن الأبحاث قد اختلفت فيها أيضاً.

ونختتم هذه الدراسة القصيرة بفكرة عن علاج السيكوباتي فقد أثبتت العديد من الدراسات والوقائع الفشل في علاج مثل هذه الشخصيات السيكوباتية، كما فشل السجن، وفشلت الرقابة الاجتماعية وفشل الإيداع في مستشفيات، بل وفشلت العديد من الأساليب العلاجية النفسية، ولعل أهم عقبة في عالجه نفسياً أنه غير مستبصر بطبيعة سلوكه، كما أنه لا

يتعاون مع المعالج، ويفتقد إلى المثابرة؟! إلا أن كل ما سبق لا يجعلنـا نفقد الأمل في علاجه، وإن كان نجيب محفوظ من خلال ما سـرده أن السجن مجرد خبرة قد مر بها نتيجة سوء الحظ، وأن الأشرار كثيرون، إضافة إلى سلوكيات الكـذب/ السـرقة/ البلطجـة/ وممارسـة كافـة السلوكيات التي تعد تحدياً للمجتمع مثل بناء بوظة/ القـوادة.. وكافـة السلوكيات المنفرة.

(٣)
شمس الدين عاشور الناجي

أما عن هويته فهو ابن الأسطورة/ الحلم/ رمز العدل/ والقوة الهادفـة/ خادم الفقراء والحرافيش/ شاكم الأقوياء/ طامس عهد البلطجة ولذا قيل عنه حين اختفى "لا يوجد بحارتنا كاره واحد لخير من حملـت الأرض (ص٩٤) قيل ذلك حين تناثرت الأقوال وكثرت الأقاويل فـي اختفائـه المفاجئ.

لكن تظل المشكلة التي تؤرق شخصية شمس الدين الناجي هي شخصية الأم وتاريخها، وظل هذا الأمر يؤرقه لفترة طويلة حتى بات يعتقد بأنه مثل القدر لا مهرب منه، بيد أن هذه الأزمة قد واجهته وهو في قمـة مجده وانتصاره ومحاولته قدر الإمكان أن يحافظ على مبادئ عاشـور الناجي. وقد ظهر هذا الموقف في أمرين:

الأول: أنه لكي يؤكد فتونته خاض العديد من المعارك، قال لـه فتـوة العطوف، وهو يتوثب للالتحام "أقدم يا بن الزانية.. أقدم يا بن عـاهرة خمارة درويش!"

وملأ سبابه الأسماع.. هال له رجاله وزمجر الآخرون. أهـو محـض سباب مما تفتح به المعارك؟ أم هو تاريخ يعلمه الجميع ويجهلـه هـو بحكم حداثة سنة؟ وخلا إلى شعلان الأعور وسأله عما يعنيـه الرجـل فقال له شعلان بحدة:

- نباح كلب جريح!

وقال له أيضاً: إن امرأة يختارها عاشور الناجي زوجـة لـه ووعـاء لذريته لا يمكن أن ترتقي إليها شبهة من الشبهات.. واطمأن قلبه، ولكن لفترة قصيرة (ص١٠٩).

هذه هي صورتنا كما تنعكس في العالم الخارجي، ويمكـن أن نهـرب منها أو نتجاهلها، أو يعطينا الآخرون -الأصدقاء والمقربين- كلمـات تطمئننا مثلما فعل شعلان الأعور حين سأله شمس الدين الناجي. ولكن تظل المشكلة حين تغزونا الأزمة/المشكلات/ المأزق - في عقر دارنا.

الثاني: وهذا ما حدث حين تشاجرت أمه مع زوجه إذ سمع "ذات يـوم فلة تعير زوجته بجد لص وما يدري إلا وعجمية تصيح بها "يا ربيبـة البوظة" عند ذاك فقد صوابه وصفع زوجه صفعة كادت تفقدها الحيـاة" (ص١٢٧).

وظلت علاقته بالأم متأرجحة بين أن يخضع لها أو يثور عليها وهذا ما سوف نوضحه في حينه.

أما عن طفولته فقد نشأ في مسكن متقشف فلم يعرف مـن الحيـاة إلا البساطة والكدح، كما أرسل إلى الكتاب، كما أن والده على الرغم مـن عدم اقتناعه بأنه سيرث منه الفتونة إلا أنه لم يهمل جانب القوة فعلمـه ركوب الخيل واللعب بالعصا والمصارعة. هذا عن طفولته، إضافة إلى

سمة مهمة وهي: التصاقه الشديد بالأم وقد تعلق بها إلى درجة الهوس حتى قال له عاشور الناجي يوماً: الرجل الحق لا يتعلق بأمـه مثلمـا تفعل، وقد نزعه نزعاً من الأحضان الدافئـة (ص١٠٩). وإذا كانـت الطفولة بصفة عامة تتحدد فترة زمنية ضئيلة إذا قورنت بعمر الإنسان إلا أن وزنها يفوق كمها المحدود من حيث التأثير، وقد بين لنا التحليل النفسي -على سبيل المثال- أهمية الخبرات المبكرة في حياة الإنسـان بل لقد ذهب فرويد إلى أن تكوين شخصية الإنسان تتحدد في السـنوات الخمس الأولى كما نرى في الأمثلة الشعبية ما يشير إلـى نفـس هـذا الاعتقاد إذ يقال إن "الديك الفصيح في البيضة يصيح" بيد أن طول فترة الرضاعة، ونظن في حالة شمس الدين أنه ارتبط بالأم جداً إبان فتـرة تواجدهما في الصحراء حيث اختفت معـالم الارتبـاط أو الانشـغال بمفردات العالم الخارجي وكذا سجن عاشور، كما أن الوالد كان يقضي جل يومه في سواقة الكارو تاركاً الطفل في أحضان أمه. وإذا كان هذا قد أوضح لنا في أولى مراحل التطور -خاصة مرحلـة البحـث عـن الأمان- أن وجود الأم الثابت والمتكـرر يعطيـه الإحسـاس بالثقـة الأساسية، وأن هذه المشاعر الداخلية يتم إسقاطها على العالم الخارجي (أثق في أمي إذن أثق في العالم الخارجي والآخرين) إلا أن المشـكلة في أن الأم لكي تعطي للطفل هذه الدرجة من الثقة والأمان والاستقرار يجب أن تكون هي الأخرى قد أخذته في طفولتها، علاوة على حصولها عليه بشكل آخر في فترة الأمومة إذ إن فاقد الشيء لا يعطيـه. ولـو طبقنا ما سبق على ظروف تنشئة شمس الدين الناجي فسوف نجـد أن والدته (فلة) لم تحصل على الأمان إبان فترة طفولتها وحتى بلغت مبلغ

النساء، إذ كيف لها ذلك، وهي اللقيطة، والتي أوقعها الحظ العاثر في يد درويش زيدان صاحب البوظة -والذي استغلها كخادمة زبائن ومرفهة عنهم في الآن نفسه، ولو لم ينتشلها عاشور الناجي من البوظة لمضت بها الحياة حتى مصت رحيقها، كما أن "فلة" لم تحصل أيضاً على الأمان الكافي إبان فترة زواجها من عاشور وقد قوبل من الجميع باستهزاء وسخرية حتى من درويش زيدان نفسه، فربما كان يعتمل في داخلها أن هذا الزواج ما هو إلا مجرد نزوة طائشة وإن اكتست بالإطار الشرعي من خلال الزواج، إضافة إلى أن عاشور كان قد تزوجها لتعد الزوجة الثانية، مع العلم بأنه أنجب من زوجه الأولى ثلاثة أولاد هم: حسب ا ، وهبة ا ، ومنة ا ، وما أدراك ما الأولاد، وبالتالي المكانة التي تحتلها والدتهم في مجتمع يقدس الذكورة، ويؤمن بالعنف والقوة والشراسة كقانون من قوانين الوجود -إضافة إلى خشيتها من أن تعود مرة أخرى إلى عملها وحياتها السابقة وخشيتها من أن يعود عاشور إلى زوجه الأولى وأولادها، وكأن باطنها يذكرها بأن "القديمة تحلى وإن كانت وحلة" لكل ما سبق فإننا نلمح في طفولة شمس الدين الناجي ما يكدرها من حيث طول فترة الرضاعة والالتصاق بالأم، وإن كان الأب قد تدخل في الوقت المناسب فحاول تبصرته ثم انتقل به من القول إلى الفعل، فأجبره على مرافقته عبر الكارو وإن كان يقضي معظم الوقت في النوم (وهو نوع من الهروب في التعامل مع الواقع) إلا أنه على أية حال خبرة علاجية جيدة في عدم الالتصاق بالأم. أما عن مراهقة شمس الدين الناجي فكان بها شيء من التمرد، لأنه صدم بين الهالة العظمة والأسطورة التي يتمتع بها والده وبين حالة

الفقر التي يحياها، فضاق بهذه الحياد متوحداً بذلك مـع والدتـه، وإذا كانت والدته قد فضلت الصمت وعدم التصريح بما يجيش فـي نفسـها خوفاً من بطش عاشور ومبادئه القوية التـي لا تلـين، إلا أن شـمس كمراهق تحدى وتكلم ونال العقاب " قال له مرة عند قدوم العيد:

- أريد يا أبي أن أرتدي عباءة ولاثة.

فقال عاشور بحزم:

- ألا ترى أن أباك لا يرتدي الجلباب؟

وكانت فلة تضيق بالحياة مثل ابنها، وكانت تقول لعاشور على مسـمع من شمس الدين:

- لو أخذت من الإتاوات ما يضمن لك حياة كريمة ما لامك أحد.

فيقول لها عاشور:

- بل عليك أن تربي الدجاج لتهيئ حياتنا شيئاً من اليسر المشروع.

ثم يقول مخاطباً شمس الدين:

- لا قيمة لبريق في هذه الحياة بالقياس إلى طهـارة الضـمير وحـب الناس وسماع الأناشيد (ص٩٨). ورغم ذلك لم يكتف عاشور بالنصائح بل "دربه على الكارو، وتبادلا العمل عليها، ولما شارف الستين تركها له أكثر الوقت" (ص٩٨).

ورغم ذلك فقد حصل شمس الدين على (عيدية) اشترى بها عباءة ولاثة ومركوباً وخطر مزهواً صباح يوم عيد وما إن رآه عاشور حتى أخذه من تلابيبه ثم لطمه لطمة قوية دار بها رأسه وصاح به: "يتسللون إلـيّ من ثغرة ضعفك بعد أن أعيتهم إرادتي الصلبة" (ص٩٨).

ونظن أن تلك الخبرة كانت أهم الخبرات في مراهقة شـمس الـدين إذ جعلته يعتقد "أنه لا قبل له بغضب أبيه، وخجل من نفسه، وخذلته أمـه فلم تجرؤ على الدفاع عنه أو الوقوف إلى جانبه (ص٩٨:٩٩) ولعـل أزمة مرحلة المراهقة -كما عبر عنهـا (أريكسـون) بأزمـة الهويـة Identity Crisis، وهي أزمة يؤدي فيها التساؤل: من أنا؟ إلى اهتزاز في كل مفاهيمه السابقة عن تصوره لذاته. فبواسطة هذه الهـزة يعيـد الشباب تشكيل ذاته من جذورها منذ بادية حياته فيعـود يحيـا جميـع مراحل حياته السابقة التي دفنت وتأجلت عند الانتقال في كل مرحلـة إلى التي تتلوها، وإن النجاح في هذه المرحلة يؤدي إلى اكتشاف الشاب لهويته وإذا فشل في ذلك فإنه يضيع في حالة من ارتبـاك الـدور أي محور صراعه هو الهوية في مقابل ارتباك الدور. وإذا طبقنا كل مـا سبق فسوف نجد أن شمس الدين قد وعى هويته وفاجأ الجميـع بأنـه يستحق وقادر على أن يكون الفتوة بلا منازع، حين اختفـى عاشـور وفشل في العثور عليه كان لابد من اختيار فتوة للحارة، وأقبل غسـان ودهشان للنزال دون أن يسعى أحد من الفريقين إلى ضم أو حتى نيـل بركة أمه، أو حتى التفكير فيه، وحين فاز غسان اعترض شمس الدين ودخل معه في نزاع واستطاع بكل قوة أن يفوز بالتونة وسـط دهشـة وترحيب الجميع ما عدا الفريق المهزوم طبعاً (ص٩٩:١٠٥).

ثم اختار أن يسير على عهد عاشور الناجي إذ كان راعياً للحـرافيش، شاكماً للسادة والأعيان، وثابر الفتوة على عمله سـواقاً للكـارو، كمـا اشتغل كل رجل من رجاله بحرفته، ولم يتخل عـن شـقته الصـغيرة مسكناً، وسد أذنه دون همسات أمه المتوسلة. امتلأت أعطافه بالعظمـة

الحقيقية، وروى ظمأ قلبه بحب الناس وإعجابهم، وسرعان ما صار من رواد الزاوية، ورحب باقتراح الشيخ حسين قفه ومن أموال الإتـاوات جدد أثاث الزاوية، ورحب باقتراح الشيخ قفه فأنشأ كتاباً جديـداً فـوق السبيل (ص١٠٨). هذا عن العمل أما عن الزوجة أو النصف الآخـر فقد سار في إجراءات خطوبة "عجمية" بل تزوجها دون موافقـة الأب، لأنه قد آمن "بأن أمه قوية وعنيدة"، اعترف أيضاً بأنه يحبها ويحترمها لا باعتبارها أمه فحسب ولكن بصفتها أرملة عاشـور النـاجي أيضـاً (ص١١٥).

وإذا كان شمس الدين قد تخطى هذه العقبة وعقبة رفض أمه بأن يقترن بـ"عجمية" إلا أنه فيما يبدو لم يتخط عقبة رغبة الأم في أن تتزوج من عنتر الخشاب صاحب الدكان، وبدت معركة لا حل لها، فرفض شمس الدين بحجة أن "عنتر يماثله في السن، ثم قررت أمه أن تتزوج، هكـذا أخبرته بقرارها بعد أن بدأت المعارك اللفظية بين أمه وزوجه ومعايرة كل منهما للأخرى ثم أخذ يهدد عنتر حتى لزم داره، أما عن أمه فقـد أصابتها الحمى فتدهورت صحتها ولم ينفع معهـا وصـفات العطـار فأسلمت الروح" (ص١١١:١٢٨). ثم تطايرت الشائعات عنه بأنـه دس السم لأمه ليمنعها من الزواج.. ثم كثرت الأقاويل (ص١٢٨:١٢٩).

ولكن كيف واجه شمس الدين هذا الموقف؟

لقد انغمس في ممارسة الجنس مع قمر وهي كما قالت أمه "قمـر فـي مثل سن أمك وهي عقيم" (ص١١٣) وقد مارس معها الجنس مـرتين، مرة حين رفضت أمه زواجه من عجمية، والمرة الثانية حين توفيـت والدته بعد أن صمم على الرفض بأن تقترن بعنتر الخشاب ويصف ذلك

نجيب محفوظ "وذات ليلة اضطربت أعصابه تحـت ضـربات قـدره فمضى كالنائم إلى مسكن عيوشة الدلالة. جلس على الفـراش دون أن ينظر إليها وهي تحاق فيه بذهول. وقال بلا أي انفعال:

- إليّ بقمر (ص١٢٩)

ولكن ماذا يعني من الناحية النفسية أن يمارس الفرد الجنس مع امـرأة تماثل والدته في العمر؟ (كما قالت أمه ذاتها) أو حتى يختارهـا وهـي تماثل الأم الكثير من الصفات كزوجة؟!.

لا شك أن هذا الاختيار يكمن وراءه دوافع نفسية خفية، كما أنها تعبـر عن احتياج نفسي/ فسيولوجي دفين قد لا يعيه الفرد ذاته، وكأنه يهرب م الارتماء في أحضان الأم بالاستقلال إلى درجة الفناء في أحضان أم (أو زوجة أخرى) وكأنه يهرب منها إليها. كما أن اختيـاره عجميـة الشرسة يفيد في اختياره نموذجاً مخالفاً للأم الحنون. القضية الأخـرى الجديرة بالتأمل في شخصية شمس الدين الناجي أنه قد حسـن تمامـاً موقفه من الاختيار، واختار طريق والده ورفض أية إغراءات من قبل الأثرياء حين أرسلوا شيخ الحارة محمود قطـائف عارضـاً مشـاركة الأثرياء في إقامة زفة تليق به إلا أنه رفض، رغم أن الأم كانت تميـل إلى الموافقة (ص١١٧:١٢٢) إلا أنه قد تقدم به العمر وكان عليـه أن يقهر الموت، ماتت زوجه عجمية، وحين ذكر ذلـك بعـد الحـرافيش وسمعه انتابته لحظة جنون، بل أخذ يتحدى لدرجة أنه بادر إلى الخمارة فمرق من بابها مثل عاصفة، سكتت الأصـوات المخمـورة، وقفـوا مترنحين خاشعين، إلا أنه عاد إلى صوابه مذكراً نفسه أنه لن يتحـدى الهواء. لن يتمادى في ارتكاب الحماقات. ستسنح فرصـته فينتهزهـا

ستعرض تجربة فيخوضها (ص١٣٨). ورغم أن ابنه سليمان قد تولى أمور الفتونة لدرجة أنهم ذهبوا إلى معركة دون أن يخبـروه إلا أنـه اندفع إلى المعركة بلهفة، وثب برشاقة وانتصروا ثم عاتب ابنه قـائلاً له:

- لي معك حساب.

فقال سليمان معتذراً:

- إنه الوفاء للغدر.

وصاح الرجال:

- صلاة النبي ترضي النبي (ص١١٤).

وحين مات وهو في سن متقدمة سمي "بقاهر الشـيخوخة والمـرض" (ص١٤٦).

كما عادت صلابته البطولية أسطورة وكرامة، أو رغم هفواته القليلـة فإنها تهاوت وسط مبادئه الجليلة.

فهل نعتبر أن مقاومة شمس الدين الناجي للموت هي نوع من المقاومة؟ وكيف يتأتى لرجل طاعن أن يفوز في معركة ويفرض سلطانه حتـى آخر لحظة من حياته على الجميع. لقد رفض شمس الدين محـاولات زوجه عجمية في أن يصبغ شعره، كما رفض كافة المحاولات أن يسلم أمور الفتونة لابنه سليمان، بل كان وهو الطاعن هكذا في السن -يدربه عليها وبلا هوادة، هل كان يتحدى الموت والضعف؟ هل كان يطمع في أن تكون نهايته جميلة وخالدة مثلما كان الحال مع والده عاشور الناجي والذي عد اختفاؤه من قبيل الكرامات؟!

لقد ظل كما نقول حتى آخر رمق فيه ينبض بالحياة. ويكفي وهو فـي هذه السن أن تقدم وفاز في معركة مع فتوات آخرين حتى كتـب لـه النصر رغم دهشة الآخرين. فماذا يحدث في مثل هـذه السـن والتـي يطلق عليها (أريكسون) مرحلة التكامل، فهل فشل شمس الـدين فـي تحقيق ما كان يصبو إليه؟ هل تشبث بالإنتاج والعمل والاستمرار حتى الموت؟ وهذا ما كان من أمر شمس الدين الناجي، أنـه لـم يتشـبث بالماضي ولا بزوجه ولا مال إلى حياة الدعة والاستقرار، بل وقف في الميدان يدافع عن حياته ومبادئه، ومبادئ والده (الأسطورة) حتى كـان هو الذي سخر من الموت وليس العكس.

حقاً لقد كانت حياة الخليفة شمس الـدين النـاجي حافلـة بالمسـرات والتحديات.

(٤)

شخصية سليمان شمس الدين عاشور الناجي

إن سليمان الناجي يمثل مرحلة السقوط، ونجاح الإغراءات في استمالته بعد أن فشلوا في استمالة عاشور وشمس الدين، أما هو فسـقط وأعـاد الفتونة إلى سابق عهدها، بمعنى أن تكون سلاحاً في يد الأغنياء وضد الحرافيش، وعادت الفتونة إلى عهد البلطجية وفرض الإتاوات وضياع صوت الحرافيش. ورغم أن البداية لا تنبئ أبداً بالنهاية إلا أن السـوس كان يعمل في الجسد والضمير والعقل بإصرار حتى سقط من ظن أنـه بعيد عن السقوط.

هويته: لا غبار عليها فوالده شمس الدين الناجي والذي عـد أسـطورة وحياته كرامة من كرامات الأولياء، والذي ظل حتى آخر رمـق فيـه يتحدى الموت ويقاوم ويثبت للجميع أنه خالد، صحيح أنه قد سقط عـدة سقطات إلا أننا في نهاية الأمر بشر وخير الخطائين التوابون.

أما عن طفولته فكانت لا بأس بها إذ صحب والده في جولته بالكـارو، وعاش على حب الناس الجارف لوالده، ورأى كم كان كـم المغريـات ورغم ذلك لم يلن ولم يخضع والده حتى لطلبهم في أن يشـاركوا فـي إقامة زفة تليق بفتوة حارتهم، هكذا كان والده.

أما عن مراهقته فقد صادف أن شاهد شمس الناجي مصارعة ودية بين ابنه سليمان وبين شاب آخر من رجاله يدعى عتريس (أصبح فيما بعد صديقاً لسليمان، ثم تزوج سليمان بشقيقته، وحين تدهورت أموره تولى عتريس الفتونة وأعادها سيرتها الأولى من بلطجة وبطش) تعادلا فـي القوة والمهارة دقائق حتى تمكن سليمان من هزيمة صديقة. لكن هـذه الفتونة لم تعجبه فأخذه إلى السطح وفضا ثيابهما (الأب شـمس وابنـه سليمان إلا ما يستر عوراتهما وعلمه كيف تكون المصـارعة الحـق) (ص١٣٣:١٣٦) وبعد وفاة والده تولى الفتونة وهو لم يتجاوز العشرين من عمره ورغم أن بدايته كانت مبشرة بالخير تجلى ذلك في أمرين:

الأول: أنه اتبع خطى والده بلا تردد وظل حامي الحـرافيش وشـاكم الأغنياء وعدو البلطجة، ومارس مهنة أبيه برضا واقتناع (ص١٤٧).

الثاني: زواجه من فتحية شقيقة صديقه عتريس -وزميلته في الكتـاب، وقد عد هذا الزواج انحيازاً واضحاً من عتريس للحـرافيش "وعدتـه نصراً للحرافيش والفتونة الحق" (ص١٤٧).

ولكن كيف تسلل الضعف إليه والتخلي عن المبادئ؟

لا شك أن ذلك يكون تدريجياً، وله مقدمات طويلة قد تكون غير مرئية وقد تمثل فيما نظن (أسباب التحول) في العوامل التالي:

١ - رؤيته للتناقض الحاد -منذ كان صغيراً- بين عظمة والـده وكـذا سيرة جده العظيم عاشور الناجي وبين الواقع الملموس لحياتهم والـذي اتسم بالفقر والعوز والكدح.

٢ - أن هنا بعض الإغراءات. حيث كان يوجد في الحارة العديد مـن الأثرياء -وهذا واقع ملموس يظهر على السطح في طبيعـة المنـازل والملبس- ولا شك أن كل ذلك قد أثار الرغبة في حياة رغدة وعجـل بتحول الاتجاهات.

٣ - أن الأثرياء أنفسهم كانوا يعرضون ذلك، وإن والدته فتحية ومـن قبلها جدته "فلة" كانت تطلب من شمس الدين أن يأخذ من الإتاوات مـا يجعل حياتهم أكثر يسراً ولكنه كان يرفض.

٤ - أنه رأى "سنية السمري" واشتاق إلى أن يعيش حياة رغدة.

٥ - أنه حاول إقناع نفسه بأنه حتى إذا سقط ووقع في غـرام كريمـة السمري كبير تجار الدقيق فإن هذا يعد مجرد هفوة قد وقع فيها من قبله جده الكبير عاشور والذي عشق فلة، واستولى بدون وجه حق على دار البنان، وحتى شمس الدين قد وقع في غرام قمر ولم يغير كل ذلك مـن قيمة الفتونة ومبادئها (ص١٤٨).

٦ - ثم كان الإغراء الخارجي والذي لا يغيب عن فطنة المتربصين إذ أخبره شيخ الحارة أنه رأى حلماً عجيباً بـأن أناسـاً طيبـين يتمنـون

لقاءك.. إنهم الوجهاء. ورغم المقاومة الظاهرية إلا أنه قد تم لهم ولـه ما أراد (ص١٤٩).

٧ - كنوع من أن ينقذه صديقه من السقوط قبل أن يسقط فعـلاً أخبـر صديقه -وفي نفس الوقت شقيق زوجته- أنه يريد أن يتـزوج ولكنـه هون عليه الأمر، بل وصل به الأمر إلى درجة سب الحـرافيش فـي حالة سخطهم "اللعنة علـى الحـرافيش، أمـا أعوانـك المخلصـون فسيرقصون طرباً" (ص١٥٠).

٨ - إلا أنه رغم ذلك أكد سليمان لنفسه ولعتريس أنه مهما كان وحتى لو تزوج وسكن في قصر السمري فلن يتغير (أكـد هـذا الموقـف أو العبارة مرتين) (ص١٥٠:١٥١).

٩ - ولكنه حين تمت المصاهرة، وعاش حياة العز والنعيم بدأ يتغيـر وأخذ يتساءل، إذ "عجب كيف تسكن هذه الجنة الخلابة في طوايا الحارة المتقشفة" ورغم أنه حافظ على منظره الخارجي من حيـث التواضـع والالتزام بالعمل كسواق للكارو، ورغم تأكيده لنفسه أن النعـيم الـذي يرفل فيه لن يجعله يهمل حقوق الفقراء والحرافيش إلا أن هذا القـول كان محض خيال، وكلما يطرح الواقع بأنه تغير كان يقول لنفسه بحزم: "ما تغيرت ولن أتغير" (ص١٥٤).

١٠- ثم بدأت الإغراءات تفد إليه إذ نصحته سنية السمري أن يتـرك مهنة "سواق الكارو" لأنها لا تتناسب ومركزه فرفض في البداية، ثم بدأ يغزو محبة الوجهاء، وحاولوا تغيير وجهة نظره واستمالته إليهم وقـد كان لأن الأسد قد وقع في شباكهم وبدأ يكتسب عادات جديدة تمثلت في شربه للخمر (ص١٥٣:١٥٥).

١١- ثم بدأت الاتجاهات تتبلور وتتشكل طارحة أي تصميم حتـى وإن كان نظرياً -تمثل ذلك في العديد من المواقف:

(أ) أنه كان يشقى بالأيام التي يعود فيها إلى بـدروم فتحيـة (زوجـه الأولى) وحق له أن يفعل ذلك فشتان ما بـين النعـيم فـي دار سـنية السمري ومظاهر الشقاء والتقشف في بدروم فتحية.

(ب) مع مرور الأيام استنام إلى الراحة وكلف أحد رجاله فـي القيـام بالعمل.

(ج) مع الأيام -أيضاً- زاد من الهبات لنفسه ولأعوانه مما يعد خرقـاً لقوانين الفتونة الحقة/ العادلة والتي أقام أسسها كل من جـده عاشـور ووالده شمس الدين.

(د) حتى أعوانه قد تركوا أعمالهم، واستناموا إلـى طريـق البلطجـة وفرض الإتاوات مؤكدين وجود واقع جديد.

(هـ) ثم تناقصت أنصبة الفقراء والحرافيش تدريجياً حتى تلاشت مما جعل الناس يتساءلون بحق: أين عهد عاشور الناجي وشـمس الـدين الناجي؟!.

(و) آثر سليمان السلامة، وتجنب قدر طاقته المعارك ما وجد إلى ذلـك سبيلاً، بل وآثر في النهاية أن يحالف أي فتوة حتى يتفادى المواجهـة، وفقدت الحارة بذلك مركز السيادة الذي تبوأته منذ عهد عاشور الناجي.

(ط) ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أكده المظهر الخـارجي والـذي تمثل في ارتداء سليمان الناجي العباءة والعمامة، واستعمل الكارتة فـي مشاويره، بل ومضى يمتلئ بالدهن حتى صار وجهه مثل قبة المئذنـة وتدلى منه لغة مثل جراب الحاوي (ص١٥٥:١٥٦).

١٢- ثم كانت الطامة الكبرى حين فقط السيطرة على ابنيه/بكر وخضر اللذين عملا في التجارة، ثم حدث الشقاق الأكبر حين اتهمـت -زوراً وبهتاناً- زوجة بكر أخاه خضر وقامت معركة بين الأخوين، وعجـز الأب -أيضاً- عن حلها. لقد فقد مركزه وشخصيته، وهـرب خضـر وغرق الأب في الإدمان والترف وكانـت نهايتـه -حتـى الجسـدية/ الخارجية- أن انتفخت كرشه، وتدلت عجيزته، ومن إفراطه في الطعام كان يغلبه النوم وهو متربع على أريكته في القهوة (ص١٥٦:١٧١).

ولعل مفهوم الاتجاهات Attitudes يفسر التحول الذي أصاب سليمان الناجي من الانحياز الكامل إلى الحرافيش إلى نبذهم بل والعمـل فـي خندق الفئة الأخرى، وليس من السهولة بمكان تقـديم تعريـف محـدد لمفهوم الاتجاه وذلك لوجود بون شاسع بين العلماء في هذا الصدد ولكن يمكننا أن نتجاوز هذه الاختلافات، ونقدم هذا التعريف الإجرائي والذي يرى أن الاتجاهات هي عبارة عـن موقـف الشـخص الـراهن إزاء القضايا التي تهمه -بناء على خبرات مكتسبة عن طريق الـتعلم مـن مواقف الحياة المختلفة في بيئته التي يعيش فيها، وهذه المواقف تتبـاين من الرفض إلى الموافقة، ويستدل على ذلك من خلال السلوك اللفظـي أو العملي.

كما أن هناك العديد من المواقف أو العوامل التي تؤثر في خلق وتكوين الاتجاهات، وما تخلفه هذه المواقف من انعكاسات على نفسـية الفـرد سواء كانت سارة أو مؤلمة، هذا التكوين يتم من خلال سلسلة متصلة قد يصعب على الفرد أن يحدد الطريقة التي جعلته يكتسب أو يعتنق هـذا الاتجاه أو ذاك. مما يؤكد أن الاتجاه يتكون ببطء وتدريجياً، ومن خلال

التكرار والاحتكاك بالموقف. ولكن هل هناك تطابق بين القول اللفظـي والواقع العملي؟ وأيهما نثق به أكثر؟ ادعاءات الفرد باتجـاه معـين أم الواقع الممارس/ العملي؟ بمعنى آخر هل هناك اتسـاق بـين الاتجـاه اللفظي والاتجاه العملي (السلوك)؟ أم أن كليهما قد يختلف عن الآخـر؟ وهل إذا تكون اتجاه ما هل يمكن تعديله؟ وكيف يتم قياس الاتجاهـات ومعرفة مدى شدتها؟

في الواقع أن هذه التساؤلات وغيرها لا يوجد كتاب في علـم الـنفس الاجتماعي إلا وأسهب فيها، أقصد الاتجاهات وما يـرتبط بهـا مـن قضايا. وعند التطبيق نتبين كيف أن سليمان ظل يؤكد لنفسه أنـه لـن يتغير، ولكن نتيجة لانتقاله إلى بيئة جديدة يتسلل إليه التغير حتـى دون أن يعرف به ويحدث هذا بالضبط في كافة أمور تكوين الاتجاهات [(١)].

أما عن أهم الإحباطات التي واجهت سليمان شمس الدين الناجي فكانت:

١ - لجوءه إلى فئة الأثرياء متخلياً بذلك عن المبادئ التي أرساها جده عاشور ووالده شمس الدين الناجي على الرغم من أنـه أكـد لنفسـه ولصديقه عتريس أكثر من مرة أنه لن يتغير لكن كان هذا التأكيد أشبه بميكانيزم التكوين العكسي أي إظهار عكس ما يبطن. وهذا ما حـدث فعلاً، وقد استجاب لهذه الخبرة الصادمة بالمزيد من الهروب، والهروب تحديداً في الإدمان، والشره في الطعام، وكلاهما يعني عدواناً موجهـاً

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر- على سبيل المثال لا الحصر:

(أ) محمود السيد أبو النيل: علم النفس الاجتماعي. دراسات مصرية وعالمية، دار النهضة العربيـة للطباعة والنشر، ١٩٨٤، بيروت، فصل للاتجاهات.

(ب) سيد محمد عبد العال: "محاضرات تمهيدية في علم النفس الاجتماعي"، مكتبة فينوس، ١٩٧٨ - القاهرة (ص٣١:٩٢).

إلى الذات لأن الإدمان والتخمة شران قد يعجلان بنهاية الشخص. هـل هناك عدوان أكثر من ذلك.

٢ - فشله في حل الخلاف الذي نشب بين والديه (بكر وخضـر) بعـد اتهام زوجة بكر لخضر بأنه كان يراودها عن نفسها ثم هروب خضر، واشتعال نار الفتنة بين زوجه وبين زوجة ابنها التي عدتها "لعنة".

وقد استجاب لهذه الخبرة/ الصارمة بعد أشياء دفاعية.

(أ) تربصه لأي هفوة تلوث سيرته أو سيرة أبنائه حتى خافـه أقـرب المقربين إليه.

(ب) إغراقه في الإدمان والطعام (ص١٧١).

(ج) داهمه شلل نصفي فرقد فوق فراشه عاجزاً (ص١٧٢). وقد يكمن خلف إصابته بالشلل النصفي عوامل نفسية مما يعد من الأمراض -إذا انتفت العوامل العضوية الفسيولوجية- السيكوسوماتية (وهي أمـراض لها مظهر جسمي أو جسدي لكن أسبابها تكمن في العوامل النفسية ولذا فإن كافة المحاولات العلاجية القاصرة فقط على التعامل مـع الجسـد تفشل)، حيث تكون الأسباب الكامنة والمستترة نفسياً، وإن تخفت فـي مظاهر عضوية، كما أن رمز الشلل يشير إلى افتقاده القدرة والفاعليـة والتواصل مع الآخرين، وهذا الانحدار الذي بدأ ينحدر إليه من سـكن في دار السمري وتنكر للحرافيش، وعاش يرفل في النعيم، والحرافيش الذي كان من المفروض أن يدافع عنهم وعن حقوقهم قـد تنكـر لهـم وعاش في خندق الأعداء.

٣ - أما الطامة الكبرى فكان أن أهملته زوجه، وأراد أن يطلقها إلا أنه خشي من عودته إلى بدروم فتحية وحياتها المتقشفة ففضل الصمت، ثم

كان أن حادثه صراحة سعيد الفقي في أن يطلق زوجه وحين استفسـر منه ذكر له سعيد أنه لن يزيد حرفاً، وهنا لم يجد مفراً من أن يطلقهـا ويعود إلى فتحيـة وبـدرومها وهـو الـذي هـرب منهمـا كثيـراً (ص١٧٣:١٧٦).

٤ - فقد عرش "الفتونة" وسلمها إلى صديقه عتريس والذي أعادها إلى سيرتها الأولى من بلطجة وفرض إتاوات، وقد كانت كذلك فـي عهـد سليمان الناجي، وإن كان بصورة مستترة، وقد استجاب لهـذه الخبـرة طائعاً مختاراً حيث إنه هو الذي أناب عتريس في الفتونة، وظل علـى ولائه له بادئ الأمر يزوره أو يعطيه نصيبه كاملاً من الإتـاوات، ثـم تدريجياً كف عن الزيارة ودفع الإتاوات، وقد استجاب لهذه الخبرة بأن فقد العديد من الدوافع والمعاني -حتى الشعارات لم تعد تصلح، وغرق أكثر في نرجسيته، واستمسك بأمل شارد في الشفاء من خلال تـردده على العطارة والتي فشلت بدورها في إعادته إلى سابق عهده.

٥ - أنه رغم اشتداد المرض عليه، ورعاية فتحية له، وسـماعه بـأن زوجه (التي طلقها وأم ولديه بكر وخضر) قد هربت مع سقاء إلا أنـه طلب استدعاء ابنه بكر والذي لم يزره منذ فترة طويلة وأكد على أنه قد حلم بجده شمس الدين ثلاث مرات وسأله عن من سيصلح مـن أولاده للفتونة بكر أم خضر؟ وحين تيقن أنه لا أحـد "تـأوه وقـال: إن أودع الدنيا مثل سجين.. أستودعك الحي الـذي لا يمـوت" (ص١٨٠:١٨١) وفي نفس الليلة فاضت روحه.

تلك كانت باختصار قراءة نفسية في شخصية سـليمان النـاجي رمـز السقوط وخيانة المبادئ ولكنه دفع الثمن الغالي من كرامته وأعصـابه،

بل عاش أيامه الأخيرة طريحاً للفراش ومن تنكر لهم الذين قاموا على خدمته (زوجه الأولى) وذلك أبلغ الدروس.
وماذا يفيد (الدرس) وقد مات الشخص المعني بفهم الدرس؟!

(٥)

شخصية بكر سليمان شمس الدين عاشور الناجي
الطموح والتعلق بأذيال السراب

إن شخصيته تمثل جماع الأطروحة -إن جاز التعبير- بين مصاهرة الفتونة والوجاهة، وهذا خلف لديه عدم اتزان وأخذ يتساءل إلى من ينتمي؟ إلى عاشور الناجي صاحب الأسطورة والحلم/ اللاص، أم إلى عائلة السمري صاحب الوجاهة والثراء.
وإذا كان سليمان الناجي -كما سبق وذكرنا- يمثل نجاح مساعي الطبقة البرجوازية في استقطاب سلاح العدل لصالحها وبالتالي سقوط سليمان في مشاكل وأزمات لا حصر لها، فهل هذه الأحداث الدراماتيكية هي نتيجة لخيانة سليمان الناجي العهد وحنثه بالطريق القويم الذي سار فيه من قبل الجد والأب؟ أما عن أصل هذا الاقتران فإن السمري كان يحتقر في أعماقه سواق الكارو وأصله (هذه رغبة قائمة لا تنكر) تتنازعه رغبة أخرى هي تطلعه إلى مصاهرة الفتوة الجبار سيد الحارة وشاكم الأغنياء (ص١٥)، ثم مع الأيام استطاعت سنية بدلالها وثرائها والحياة الرغدة التي وفرتها لزوجها أن تنجح في اجتذابه تماماً إلى

صف الوجهاء والأثرياء مما انعكس بلا شك في افتقاد سليمان النـاجي لدوره في التعامل مع ولديه بكر وخضر.

أما عن نشأتهما فقد نشآ في حياة ناعمة مرفهة -على عكس الحياة التي عاشها تماماً الوالد سليمان وجداهما لأبيهمـا شـمس وعاشـور- ثـم أدخلتهما الكتاب، وأعدتهما للتجارة، فلم يبشر أحدهما بأنه سيخاف أبـاه ذات يوم (ص١٥٦). وكان بكر يشابه أمه سـنية هـانم فـي جمالهـا ورقتها، يبدو دائماً هشاً مترفعاً، كما اكتسب أسلوباً راقياً فـي الحيـاة وعادات عالية وتهذيباً أنيقاً إضافة إلى أن الشقيقين لم يعرفا حارتهما إلا من خلال الشرفات العالية، ولم تطأ أقدامهما أرضه المبلطة (ص١٥٦) أي اتسمت مرحلة الطفولة بنمو مختلف تماماً عن الأسـاليب السـائدة وواضح مدى تأثير الأم، إضافة إلى أن بكـر قـد ورث والدتـه فـي جمالها.

أما عن المراهقة فقد فتحت لهما الوالدة محلاً لبيع الغلال وبذلك صـارا تاجرين وجيهين (ص١٥٦) وسنقصر حديثنا عن بكر -وقـد اكتسـب العديد من الصفات التي تختلف تمامـاً عـن صـفات والـده وحتـى الحرافيش، بل صفات التاجر الذي يسعى خلف الربح، لديه قدرة علـى عقد الصفقات واجتذاب الزبون، وقدرة على المفـاخرة والسـفر لعقـد الاتفاق على صفقات محددة، لدرجة أن سليمان الناجي حين جلس مـع أسرته (الثرية) ذات مساء حول مدفأة مطلية بالفضة في بهو المعيشـة، ورأى ولديه رقيقين ومتلفعين بالعباءة المخملية المنزلية قال لهما (وكان يوجه الكلام لنفسه أيضاً إلا أنه وجه إلى ابنيه على سبيل الإسقاط):

- لو رآكما عاشور الناجي لأنكركما وتبرأ منكما (ص١٥٧).

وقد تم حوار اتضح فيه حقيقة الموقف، وهو الاتجـاه السـلبي تجـاه عاشور وتاريخه، ولولا تدخل الزوجة بالذكاء، وفي الوقـت المناسـب لتطورت الأمور إلى مالا يحمد عقباه، وحين غادر سليمان إلى مخدعه قالت سنية لبكر:

- "لا تنس أنك بكر سليمان شمس الدين عاشور الناجي"

فقال بكر وما زال متأثراً من غضبة أبيه:

- ولكني تاجر ومن آل السمري أيضاً (ص١٥٧:١٥٩).

أما عن الزواج فقد قررت الوالدة أن تفـرح ببكريهـا، وإمعانـاً فـي التخلص من أي شيء يذكرها أو يذكرهم بالحرافيش والفتونة سعت إلى زواجه من رضـوانة كريمـة الحـاج رضـوان الشـوبكي العطـار (ص١٥٩).

يبدو أن الأمور بعد ذلك لم تسر في طريقها المعتاد الذي حددتـه الأم، وما كان متوقعاً من سعادة، ونستطيع أن نحصـر أهـم الضـغوط أو العقبات التي صادفت بكر وكيفية التعامل معها في:

١ - أن زوجه لم تبادله حباً بحب، بل على العكس ظلت قلقة/ متـرددة غير مستقرة لدرجة أن الأم من جانبها قدمت تفسيراً مؤداه أن البنـت ستستقر عندما تنجب (ص١٥٩:١٦٠). ثم تلعب دور المعـول الـذي عجل بنهاية وتشريد هذه الأسرة حين أفاضت بالرمز أولاً ثم بالتصريح بعد ذلك أنها تحب خضر لا بكر، إلا أن خضر لـم يتجـاوب معهـا، وكانت النتيجة أن ادعت لزوجها حين عاد من رحلتـه التجاريـة -أن خضر يراودها عن نفسها (ص١٦٠:١٦١).

٢ - صدم بكر في شقيقه خضر، وتعارك معـه وحـين تـدخل الأب ليعرف الحقيقة هرب خضر (ص١٦٧:١٧١).
٣ - طلاق الأب والأم، وقد جزع بكر لذلك جداً وقال لأبيه:"
- ما كان ينبغي أن يقع ذلك
فقال له:
- بل عليك أن تصون أمك يا بكر!
فصرح بكر:
- قطعاً لألسنة الوشاة!" (ص١٧٦).
ورغم أن بكر قد لجأ في البداية إلى سـلاح الإنكـار Denial إلا أن الكلمات التي تناثرت إليه فيما بعد قد أكدت مسلك أمـه المشـين ممـا اضطره إلى القيام بتبصير الأم بسلوكها، إلا أن سنية والدته غضـبت لذلك ولم تمتثل.
٤ - رغم حبه الشديد لزوجه، ورغم أن الزوجة أنجبت له: رضـوان وصفية وسماحة إلا أنه افتقد معها السعادة، ورغم أنه حاول من جانبـه أن يبصر زوجته بأهمية ما تضفيه السعادة على منـزل لا ينقصـه أي شيء إلا أنه قوبل بجفاء.
٥ - قيام علاقات سيئة وخلافات مستمرة بين أمه وزوجته لدرجـة أن هذه المشاجرات لم تقف عن حد السباب وتبادل الاتهامات بل تجـاوب معه "قذف بالشمعدان" وأصرت الأم على أن يطلق بكر رضوانة، ولكنه كان ضعيفاً ولا يستطيع أن يحسم طبيعة الأمور أو أن ينحاز إلى خندق أي منهما أو حتى يعدل بينهما، بل ترك نفسه وتركهما كريشة في مهب الريح.

٦ - ظلت علاقته بالزوجة سيئة للغاية على الرغم من إغراقها وإغراق أولاده منها بالهدايا والتحف، ولم يكتف بذلك بل أنقذ والدها من الإفلاس وتوقع بعد ذلك أن تتغير، أن تبادله حب بحب، أو حتى تهذب من طبعها معه حتى تأكد بكر من استحالة تغيرها مذكراً نفسه: "إن قيام القيامة نفسها لن يغيرها" (ص١٧٩).

٧ - هروب والدته من الدار والحارة ثم عُرفت الحقيقة بعد ذلك أنها قد هربت مع شاب سقاء وتزوجت منه، فاضطر إلى مواجهة هذه الكارثة/ الإغراق أكثر في التجارة والسجلات رافضاً مساعدة عتريس الفتوة لكي يؤدي إليه أي خدمة قد تعيدها أو حتى يعرف مكانها (ص١٧٩).

٨ - أن والده قد طلبه لزيارته، وهو يذكر أنه لم يزر والده عند زوجه الأولى منذ فترة طويلة، إلا أن والده كان يسأله: من مِن أولاده يصلح للفتونة فابتسم معتذراً (ص١٨٠:١٨١).

٩ - تعرضه للإفلاس نتيجة لمغامرة تجارية غير محسوبة العواقب، وتعرض كل مقتنياته للمزاد العلني وبالرغم من ظهور خضر وإنقاذه لشقيقه من هذا الإفلاس إلا أن بكر رفض مؤكداً أنه ما جاء إلا للشماتة والانتقام، ثم ضربه المبرح لزوجه لدرجة أنه ظن أنها ماتت، ثم ذهب بعد ذلك إلى خضر (المجتمع بالدائنين يريد قتله، ثم هروبه بعد ذلك تماماً عن الحارة).

١٠- أن بكر قد واجه كافة هذه الأحداث والعقبات بالإغراق في التجارة، وجمع المال، والدخول في صفقات تجارية أدت به إلى "قرحة أفسدت عليه مذاق حياته الخاصة" (ص١٧٦) ويقودنا أسلوبه في مواجهة الضغوط إلى بيان أمرين:

الأول: أن إصابته بالقرحة يدخل ضمن الأمراض النفسية/ الجسمية أو ما يسمى بالأمراض السيكوسوماتية، والتي تطرح قضية مهمة تتمثل في أن هناك علاقة بين النفس والجسم، وأن المثل الإغريقي الذي يقول: "إن العقل السليم في الجسم السليم" يعترف، بل ويؤكد حقيقة أن كليهما مرتبط بالآخر ارتباطاً وثيقاً، هذه حقيقة على الرغم من أن البعض يتجاهلها. وإن تعرض الفرد للضغوط Stresses قد يجعل الفرد غير قادر على التوافق معها فتنعكس على أبدانهم في صورة مرض نفسي/ جسمي، ومما يؤكد عدم التكيف مع الضغوط أن أغلب المترددين على الأطباء وبنسبة من ٤٠-٦٠% من كل أنواع المرض يعانون من اضطرابات سيكوسوماتية، ليست فقط الإصابة بالمعدة بل قد تأخذ أشكالاً عدة مثل الإصابة بمرض البول السكري، السرطان، روماتيزم المفاصل، أمراض الأسنان، الصداع، اضطرابات المعدة وغيرها[(١)].

ولكن هل الأمراض السيكوسوماتية مرتبطة أكثر بالتحضر أم بالتوافق؟

وعموماً فقد توصل علماء النفس من خلال العديد من التجارب -إلى النتائج التالية:

١- غالباً ما تؤدي خبرات التحضر بالأفراد إلى سوء التنظيم واضطرابات الشخصية والإجهاد والتوتر.

٢- أن التعرض لحياة الحضر والتي تتميز بهذه الوفرة من المنبهات والازدحام يجلب الأمراض السيكوسوماتية.

---

(١) محمود السيد أبو النيل: "الأمراض السيكوسوماتية"، دراسات عالمية وعربية ١٩٨٤، مكتبة الخانجي- القاهرة.

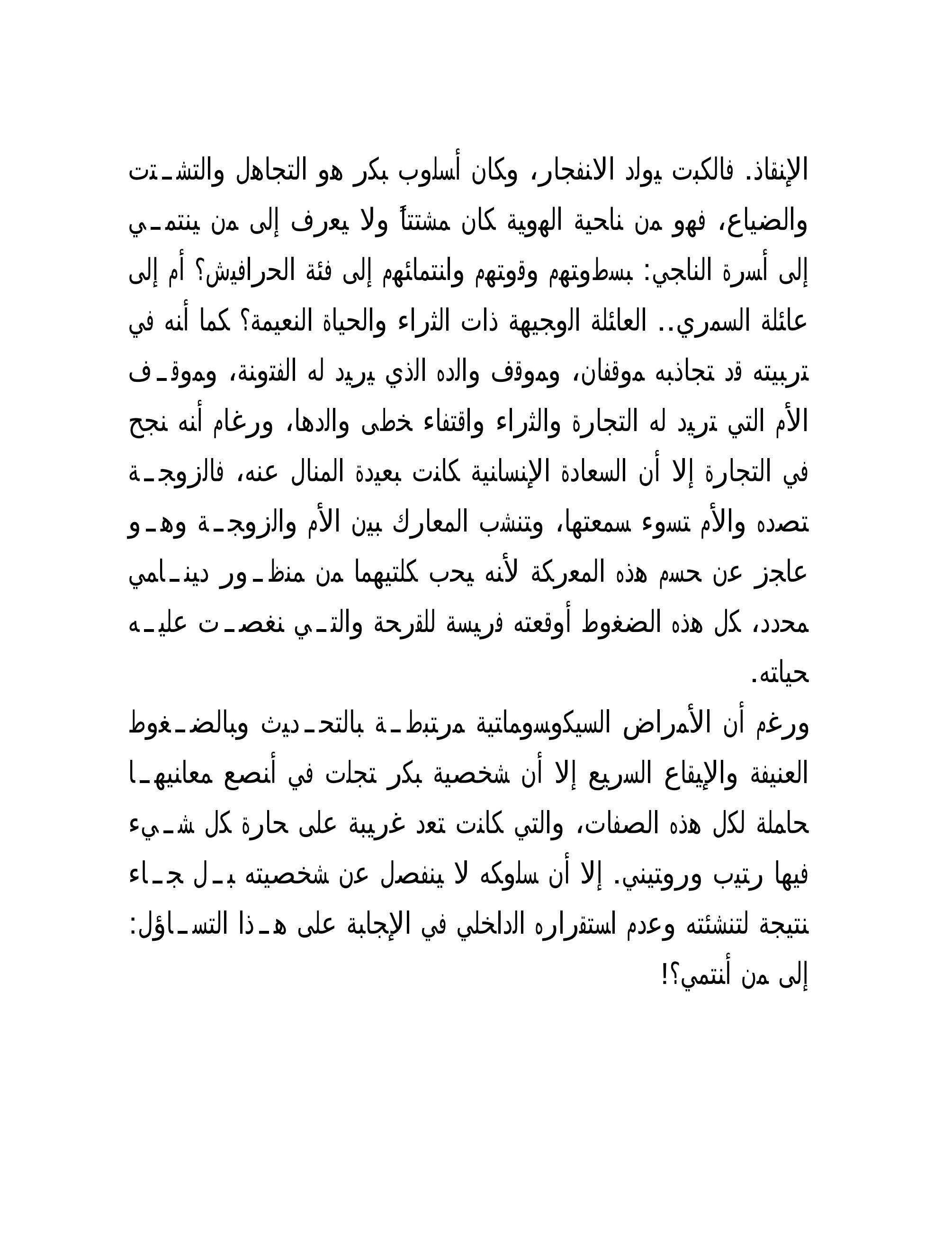
٣- أن الأمراض السيكوسوماتية تظهر أكثر لدى الأفراد قاطني المدن وذلك لسرعة إيقاع الحياة العصرية، على عكس قاطني الريف حيث إن إصابتهم تكون أقل.

٤- أن عوامل المنافسة، والتعرض للضغوط، وعدم إعطـاء الفرصـة للنفس والجسد لالتقاط كل ذلك يعجل بوقوع الفرد فريسـة للأمـراض السيكوسوماتية [(١)].

الثاني: أما عن سلوك بكر الاندفاعي خاصة حين ظهر خضـر مـرة أخرى وعرض على شقيقه إنقاذه من الإفلاس، فرفض كما عرض ذلك على زوجه (رضوانة- التي يعشقها إلا أنه اتهمها بالخيانة واندفع فـي ثورة من الانفعالات والركل لها حتى ظن أنه قتلها، وحاول قتل شقيقه إلا أنه سلم نفسه إلى القسم، ثم أخلى سبيله ثم اختفى.. ما هـو التغيـر السيكولوجي فهذه الثورة الانفعالية؟ وكيف تحول الرجل المتزن الـذي يعقد الصفقات ويكثر من الرحلات إلى الـدخول فـي هـذه الموجـة الهوجاء؟ لقد كانت هذه الموجة رد فعل للعديد من التراكمـات داخلـه بدءاً من صد الزوجة له، ثم طلاق الأم، وسمعتها المشينة، ثم هروبهـا مع شاب سقاء وما جره ذلك من شعور بالخزي والعار له، ثم إغراقـه في جمع المال، ثم عدوانه نحو نفسه والآخرين بالمقامرة بالمال وتبديده حتى وصل إلى حافة الإفلاس مطبقاً مقولة "عليّ وعلى أعـدائي" (أي الزوجة والأولاد) وقد تجلى ذلك في رفضه محـاولات خضـر فـي

---

(١) محمود السيد أبو النيل: "التحديث والاضطرابات السيكوسوماتية" وجهة نظر في ضوء علاقة التوافـق بالتحديث في: لويس ملكية، قراءات في علم النفس الاجتماعي، المجلد ٦، الهيئة المصـرية العامـة للكتاب ١٩٩٤ (ص٣١٩:٣٣٨).



الإنقاذ. فالكبت يولد الانفجار، وكان أسلوب بكر هو التجاهل والتشـتت والضياع، فهو من ناحية الهوية كان مشتتاً ولا يعرف إلى من ينتمـي إلى أسرة الناجي: بسطوتهم وقوتهم وانتمائهم إلى فئة الحرافيش؟ أم إلى عائلة السمري.. العائلة الوجيهة ذات الثراء والحياة النعيمة؟ كما أنه في تربيته قد تجاذبه موقفان، وموقف والده الذي يريد له الفتونة، وموقـف الأم التي تريد له التجارة والثراء واقتفاء خطى والدها، ورغام أنه نجح في التجارة إلا أن السعادة الإنسانية كانت بعيدة المنال عنه، فالزوجـة تصده والأم تسوء سمعتها، وتنشب المعارك بين الأم والزوجـة وهـو عاجز عن حسم هذه المعركة لأنه يحب كلتيهما من منظـور دينـامي محدد، كل هذه الضغوط أوقعته فريسة للقرحة والتـي نغصـت عليـه حياته.

ورغم أن الأمراض السيكوسوماتية مرتبطـة بالتحـديث وبالضـغوط العنيفة والإيقاع السريع إلا أن شخصية بكر تجلت في أنصع معانيهـا حاملة لكل هذه الصفات، والتي كانت تعد غريبة على حارة كل شـيء فيها رتيب وروتيني. إلا أن سلوكه لا ينفصل عن شخصيته بـل جـاء نتيجة لتنشئته وعدم استقراره الداخلي في الإجابة على هـذا التسـاؤل: إلى من أنتمي؟!

(٦)

شخصية سنية السمري

المرأة التي خانت وتمردت

باقتران سنية السمري من الفتوة سليمان شمس الدين الناجي استطاعت أن تقدم خدمة لا تنسى لها ولطبقتها الثرية التي تنتمي إليها، لأنها استطاعت بدلالها وأنوثتها وواقعها المادي الاجتماعي/ الاقتصادي أن تحول سليمان من خندق الحرافيش إلى أن يكون سلاحاً في يد الأثرياء، وعوناً لفئتها، وبذا أعادت المجد الذي فقد إلى طبقتها مرة أخرى، بعد أن كاد الأمل في عودته يتلاشى إبان فترة عاشور وشمس الدين الناجي، فهوية سنية السمري واضحة وهي: انتماؤها إلى طبقة الأثرياء، وطفولتها بلا شك كانت مفعمة بالأمل والترف والحياة الرغدة، ولذا حين رآها -أول الأمر- سليمان الناجي في جلسته الهادئة من محله بالقهوة رآها "براقة المنظر" تطل من فوق برقعها الأبيض عينان سوداوان ساجيتان ساحرتان، يبعث مرورها السريع الدفء والإلهام (ص١٤٨). هذه الصورة جعلت سليمان يقارن بين صورة فتحية والبدروم وصورة هذه السيدة وأخذ يتخيل كيف سيكون ثراء المنزل من الداخل، وبات مهيأً من الناحية السيكولوجية للوقوع في أسر طبقة الأثرياء، والتخلي عن أحلام الحرافيش والفقراء، وإذا كان الإنسان لا تفضحه الكلمات فحسب، بل كافة التعبيرات التي تصدر عنه. فهذا ما حدث بالفعل، إذ ما شرع سليمان في مفاتحة صديقه عتريس (شقيق زوجته فتحية) في الزواج حتى وجد أن هذا الأمر قد

شاع لدرجة أن سليمان قد صاح: "ذاع السر لهـذا الحـد" (ص١٥٠). فقال له عتريس: (الحب ذو رائحة نفاذة) وتزوج سليمان النـاجي مـن سنية السمري، ووالدها كاره له (في الباطن) إلا أنه ظاهرياً يتمنى إتمام هذه المصاهرة للمزايا العديدة التي ستعود عليه وعلى طبقته وخاصـة عودة الفتونة إلى سابق عهدها. ثم نتبين من خلال القليل الـذي ذكـره محفوظ عن هذه السيدة أنها كانت ذات سطوة، أجادت باقتـدار تغييـر سليمان وشخصيته من النقيض إلى النقيض، بل استطاعت بكل ذكاء أن "تحجم" سليمان ودوره ليس فقط في تربية ولديه بكر وخضـر ولكـن كفتوة، حيث استطاعت أن تتسلل إليه بسحر الأنثى الراقية/ الممتلكـة/ التي تنتمي إلى طبقة الأثرياء. المال هو الحلم الـذي يـراود أعمـاق سليمان بعد طول كدح وتقشف وانتقل إليه عبر الوراثة. من خلال والده شمس الدين وجده عاشور ومن خلال البيئة، مجرد سواق كارو يكـدح ويشقى، ثم في النهاية يظفر بنومه في البدروم، أضحى عمله كسـائق كارو غير مناسب إطلاقاً لطبيعة الدار الفاخرة التي يحيا في كنفها وهي محملة بكل هذا النعيم فحاولت في البداية أن تجعله يكف عن ممارسـة مهنته، أو يؤجر آخر ليسوق الكارو، ولكنه في البداية وكالعادة يرفض بإباء ويحاول السيطرة، وأن يفرض شخصيته وكرجل، ولكنها كانـت في أعماقها تسخر من هذه المقاومة لأنها تعلم أنها "صرخة مـا قبـل الغرق" وقد حدث ما توقعته بالفعل بل وأكثر من ذلك، ثم انهارت كافة أشكال مقاومته استكانت تحت ضربات الحياة المرفهة، والمرأة الثريـة التي تجيد التسلل والتحكم في العقول والقلوب ورغم أنها اجتماعية تتفق مع الأساليب السائدة في بيتها، رافضة أي سيطرة مـن قبـل الوالـد

عليهما، وحين أبدى سليمان في إحدى الأمسيات -رغبته في أن يكـون أحد أولاده من الفتوات نمّت إجابتها عن مقتها لهذا اللون مـن النشـاط لدرجة أنه سألها بجفاء: "- ألا تحترمين الفتونة؟"

فتراجعت بلباقة قائلة:

- "أحترمها كما أحترم رجلهـا، ولكنـي أكـره أن يتعـرض ابنـاي لمخاطرها.." (ص١٥٧) وكانت تعلم أنها تحتقره، وأنها ما اقترنت بـه إلا لهدف استراتيجي أوشك على الانتهاء ودخول مرحلة جديدة، ومـن جانبه أدرك سليمان ذلك. وكف عن مجادلة الزوجة قائلاً لنفسه وهـو يجتر أفكاره: "ما جدوى الخصام؟ وماذا بقى من العهد؟.. وقد اسـتنام الضمير إلى الدعة، واستسلم الجسد الشره إلى تيار الإغراء والاستهانة. والمعارضة في هذه الحال حركـة سـاخرة" (ص١٥٧:١٥٨) هكـذا استكان سليمان الناجي تحت دفقات سيطرة زوجه، وليس هو فحسب بل أيضاً أولاده، إذ أرادت أن تفرح ببكريها (بكر) فقررت أن تزوجه من نفس طبقتها (ثرية تتحالف مع ثرية، ويضيع الزوج بينهما) فخطبت له (رضوانة كريمة الحاج رضوان الشوبكي العطار) وتتضح سيطرة الأم، وعدم إتاحتها الفرصة لأحد لأن يتدخل في اختيارها أن بكر قد تـرك لأمه حرية الاختيار، لم ير عروسه ولم تره، ثم كانت الأحـداث التـي تلاحقت (من اتهام رضوانة لخضر بأنه يراودها عن نفسها ثم كان مـا كان). ونستشف أنها كانت ذكية، تهتم بجسدها، تجـري وراء إشـباع رغباتها (تملك وتقدر) تعرف متى تهجم ومتى تلين ومتى تصمت وقـد سعت أكثر إلى تأكيد سيطرتها وخروجها إلى العالم الخارجي بعـد أن دان الجميع لها بالطاعة داخل المنزل بدءاً من العملاق (السابق) سليمان

الناجي وحتى والديها وزوجة بكر. ثم أخذت تمارس دورها القيادي في إثارة رغبة خضر بالزواج إلا أنه كان يرفض بلباقة مـتعللاً بأعـذار مقبولة تجعله يهرب من الموقف. ثم يظهر دورها أكثر حين فوجئت - مثل زوجها الغافل- بحقيقة وجود مشكلة بـين والـديها.. حاولـت أن تتدخل إلا أن زوجها أمرها بأن تسكت حتى يتم استجلاء الحقيقة، ولكن اختفى خضر وحملت الأم صدمة هروب الابن وزوجـة تعانـد ابنهـا (بكر).. ثم تلاحقت الأحداث بصورة سريعة فتعرض سـليمان فجـأة للشلل النصفي الذي ألزمه الفراش. هنا لم تتحمل سنية هـذا الإحبـاط ظنت أن الحياة تسير كما حددتها من قبل، تسير بإرادتهـا إذ "بـدا أن سنية هانم برمت الحياة في جواره. تركت مهمة رعايته إلـى جاريـة وتجهمت الحياة بقدر ما تجهمتها الحياة. ولم تنس فـد ابنهـا الهـارب خضر، وفترت لذلك العلاقة بينها وبين رضوانة ومضت تتغيب عـن الدار كثيراً ناشدة التسلية في دور الجيران، وتألم سليمان.. وقـال لهـا مرة:

- غيابك عن الدار يطول أكثر مما يليق.

- فقالت له بحدة: "قلبي يحدثني ببراءة خضر".

- لم يبق بها شيء.

وخطر له كثيراً أن يطلقها ولكنه أشفق من ألا يجد في مسـكن فتحيـة الراحة الضرورية وتجرع الذل والمهانة متصبراً (ص١٧٤).

لقد بدأت تتضح الحقائق المتوارية خلف ركـام السـنين والابتسـامات الساحرة. نعم هي لم تحب في يوم سليمان ولن تحبه، وإنما اقترنت بـه لرغبة أسرتها، وكحلم أو كنزوة طائشة، وها هي لحظة السكر تتلاشى

ويحل محلها لحظة التفكير، إذ ما بدأ سليمان في المكوث مريضاً فـي البيت حتى هجرته، ضاقت به، ولم تتذكر أنه (كان) فتوة أو أنه جعلها أماً لولدين، وأنه ترك لها الحرية لتمارس سطوتها عليه وعلـيهم. بـل سارت في طريق ممارسة الجنس، وتناثرت عليها الأقاويل والشائعات، وإذا كان المثل يقول (لا دخان بلا نار)، وأن الزوج آخر من يعلم وكان يمكن لسليمان المريض/ المخدوع أن يظل سادراً في جهله حتى أخبره بالحقيقة سعيد الفقي شيخ الحارة وأكد عليه بحق الصداقة القديمة بينهما أن يطلق زوجه (ص١٧٥)، وهو الذي سعى من قبـل إلـى تـزويج سليمان من كريمة السمري محققاً رغبة الأثرياء.

وإذا كانت المرأة لا يفهمها إلا امرأة مثلها لذا فقد نشبت معركـة بـين سنية وبين رضوانة (زوجة بكر). إذ قالت سنية لها بحدة واتهام "قلبـي يحدثني ببراءة خضر! فأجابتها بحـدة أشـد: الأصـوب أن تصـوني سمعتك!.

فهاجت سنية ورمتها بشمعدان صغير لم يصبها. ولما رجع بكر وجـد رضوانة شعلة من الكراهية والغضب. وخلا إلى أمه يعاتبهـا ولكنهـا قالت له: نصيحتي لك كأم أن تطلقها..

فذهل بكر، فقالت ساخرة:

- كانت قدم الشر الذي قضى على أخيك وأبيك وأمك. ثم بصوت حـاد متهدج:

- إبليس نفسه يعجز عن فعل ذلك كله، حتى أنت حفيد الناجي الكبيـر تؤدي الإتاوات لصعلوك من خدم أبيك وجدك (ص١٧٧:١٧٨).

ثم نأتي إلى نهاية الأحداث وهي متوقعة من خلال العـرض السـابق والمقدمات السابقة إلى أن اختفت سنية مع شاب سقاء وتزوجـت منـه (ص١٧٩) ولعل شخصية سنية السمري تطرح العديـد مـن القضـايا أهمها سيكولوجية المرأة الخائنة؟ ومتى تخون الزوجة؟ ومـا شـروط ذلك؟

والواقع أن عملية الحراك الاجتماعي (أي باقترانها من رجل مختلـف عن طبقتها)، وعدم حبها للزوج وممارسة دور المسيطرة دون أن تجد الردع من زوجها.. كل ذلك قد جعلها تسير وراء رغباتها، ولا تكـبح شهواتها.. وقد ظهر ذلك واضحاً حين اقتعد زوجها الفراش، وتحـول من رجل ملء السمع والبصر إلى مريض يحتاج الرعاية فهربـت أو تغيبت في البداية من المنزل، ثم سلكت مسلكاً مشـيناً مـع آخـرين، ضاربة بكل القيم الاجتماعية عرض الحائط.. ثم تم طلاقها تحت تأثير هذه الشائعات.. ثم كانت الطامة الكبرى حين هربت بأموالها مع شاب سقاء، وإنه من نفس الطبقة التي تكره الاندماج فيها.. أليس السقاء هذا من طبقة الحرافيش؟ وربما أدنى منزلة ومكانة من مكانة الفتوة سليمان شمس الدين الناجي؟

لماذا كرهت سليمان وأحبت السقاء والاثنان ينتميان إلى نفس الطبقـة؟ وهل ثارت الأقاويل عليها وعن مسلكها المشين مع هذا الشاب السـقاء أم مع شباب ورجال غيره؟

وهل هي منحرفة؟ أم لم تجد الرجل الذي يردعهـا ويجعلهـا تشـعر بالحماية والأمن وأن "ظل راجل ولا ظل حائط" لا ينطبق عليها؟

ونظن أنها كرهت سليمان لأنها أجبرت على الاقتران منه، وأنها كانت "كبش فداء" لعائلتها، ولذا لم يؤخذ رأيها، ولكنها هربت مع السقاء لأنه اختيارها. وربما كانت شخصية تختلف عن شخصية الفتوة الذي ارتد، وربما شعرت بغريزة الأنثى والمرأة وأن شخصية هذا الشاب السقاء (وهو عمل لا يتناسب مع مكانتها بل يعد من الأعمال التي تقدم لها كخدمة داخل دارها) أكثر قوة، وسيطرة من شخصية الأسد السابق سليمان الناجي. وإذا كانت خيانة سنية السمري لزوجها وحادثة الهرب هذه قد تركت في نفوس من يعرفونها أو يرتبطون بها جروحاً لا تندمل إلا أنها أثارت في الآن نفسه هذا الكم من التراث الشعبي في الوعي المصري عن المرأة وخيانتها وعدم الأمان لها، وأن المرأة مثل الحية -وغيرها من الأمثال والحكم المستمدة من خلال خبرة آلاف الأعوام[1].

وعموماً فقد تناولنا الخيانة الزوجية بالتفصيل في دراسة أخرى نشرت في مجلة الوسطية عدد سبتمبر ٢٠٠١م.

---

(١) سيد عويس: حديث عن المرأة المصرية المعاصرة (دراسة ثقافة اجتماعية) مطبعة أطلس، ١٩٩٧ - القاهرة.

(٧)
شخصية خضر سليمان شمس الدين الناجي
الفارس النبيل

تكاد تكون شخصية خضر سليمان الناجي من الشخصيات السوية والتي تحملت مسئوليتها باقتدار، وواجهت العديد من المواقف والإحباطات، ووصل به الأمر إلى التنكر تماماً لذاتيته ورعايته للآخرين متسامياً عن الواقع ومآزقه.

أما عن هويته فهو ابن الفتوة (الذي ارتد) سليمان الناجي، والدته سنية السمري، وهو الابن الأخير، والثاني لها، وإذا كان بكر -من الناحية العضوية الخارجية- قد ورث أمه في جمالها ورقتها، فإن خضر كان أقرب، ولعله لم يكن في ترفع شقيقه ولكنه لم يعد على أية حال متواضعاً (ص١٥٦). ثم سارت طفولته ومراهقته مثله مثل شقيقه بكر، إلا أنه يتضح أنه كان يميل أكثر إلى عائلة الناجي، تجلى ذلك حين احتدم النقاش بين بكر وأبيه، فحاولت الأم أن تذكر شقيقه الأكبر باسمه، فتمتم خضر "أجل" (ص١٥٩) ومرة حين سألته إن كانت تخطب له وفاء شقيقة رضوانة إلا أنه رفض (ص١٦٠:١٦١).

كما كانت له شروط في زوجة المستقبل مثل أنه "يفضل الشعر الذهبي والعينين الزرقاوين" (ص١٦٠).

ولعل أهم مشكلة واجهها في حياته، ولعبت الدور الأكبر والمؤثر هو علاقته بزوجة أخيه رضوانة.. تلك الفتاة التي نشأت علاقة حب بينهما بسبب كثرة أسفار أخيه "وكان يقوم بخدمتها كلما غاب بكر في إحدى

رحلاته التجارية" (ص١٦٠) إلا أن الأمور لم تسر على هذا المنـوال، بل إن الفراغ، وعدم وجود رقابة من أب يقضى معظـم وقتـه علـى القهوة، وأم مسيطرة تقضي جل وقتها في الخارج للتسلية، حتى بـدأت رضوانة تصرح لخضر أنها لم توافق على الزواج مـن ابـن الفتـوة سليمان الناجي إلا حباً فيه، وأنها لم تحب إطلاقاً شقيقه بكـر. ورغـم المأزق إلا أن خضر باتزانه وقدرته على "هضم" الواقـع الاجتمـاعي وعدم مخالفة الأصول المتعارف عليها قال لها "ساق الحظ إليك خيـر الشقيقين" فقالت برقة وعتاب:

- لا تسمعني صوت الخوف.
- إنه صوت النجاة.
- طالما أشعرتني بودك.
- طبعاً, فإنك زوج أخي المحبوب (ص١٦٤).

وحاولت إغراءه مؤكدة أن ليس للحيطان عيون أو أذن إلا أنه رفض أن يجاريها، وغادر البهو أعمى العين والقلب والبصيرة (ص١٦٥).

هذا الموقف يؤكد مدى قوة الضمير أو الأنا الأعلى لدى خضر، إنه لم يجارها في اللذة، وكان يمكن أن يتم ذلك بعيداً عن أعين الجميع.

رضوانة هي الوحيدة المستقرة في البيت وهو، أما الوالدان وبكر فدائماً مشغولون. ولكنه رفض فهل انتهت الأزمة عند هذا الحد؟ وهل عـدت رضوانة ما قالته وما قامت به من حركات إغرائية قد انتهت وتلاشت؟ كلا إنها أصرت على التمرد وأن تحدث أزمة، ألا تقبل أن تعيش تحت سقف بين واحد تكون ملكاً شرعياً ورسمياً واجتماعياً لرجل، لكن قلبها

يهوى رجلا آخر يعيش معها تحت نفس السقف. ورغم أن خضر قـد طاف بعقله ما سوف يحدث من أمور (ص١٦٦:١٦٧).

فقد صدق حدسه وصرخ فيه بكر "يالك من وغد خسيس" انقض عليـه كالوحش وراح يكيل له الضربات، والآخر لا يرد، دميت شفتاه وأنفـه ولكنه لم يرد.

فصاح بكر:

- شلك العار.

فتراجع متسائلاً:

- ماذا جرى لك؟

- ألا تعرف الحقيقة؟

- لا أفهم شيئاً.

فصرخ:

- تطمع في زوجة شقيقك؟

فهتف خضر:

- أي جنون! (ص١٦٧:١٦٨).

ورغم افتضاح أمرهما، وتدخل سليمان الناجي، وإجرائـه مـا يشـبه التحقيق لمعرفة الحقيقة إلا أن خضر هرب ولم يمتثـل لنـداء والـده المتكرر بأن يعود تاركاً النفوس تصدق حقيقة ما حدث، ولم يكلف نفسه أن يفضح الأسرار ويهتكها (ص١٦٨:١٧١).

وهنا نتساءل: لماذا هرب خضر؟ لماذا لم يصارح والده بالحقيقة ولماذا فضل أن يقوم بدور الضحية دون أن يكلف نفسه عناء الدفاع -وهـذا حق مشروع ومتاح له- أمام الآخرين وتبرئة نفسه؟ هل كان يطوي في

داخله حباً لرضوانة زوجة شقيقه، وحين حدث الزواج وتخطى القـدر أراد أن يمتثل للواقع. ويتنازل عن هذه الرغبة؟ هل فضل أن يضـحي بسعادته هو وأن يبقيها في المنزل حتى يضمن رؤيتها في أي وقت؟

هل كان فعلاً يحبها؟

نعم هذا ما تكشف عنه الأحداث بعد ذلك إلا أن خضر النبيل قد تسامى برغبته، ورفض أن يخون شقيقه، بل من أجل هذا الحب قد قام بهـذه الأعمال البطولية:

١- عمل في خارج الحارة، واستثمر أمواله خير استثمار ورغم ذلـك كان على علم تام بكافة الأحداث والخطوب التي ألمت بأسـرته، وقـد اتضحت هذه الحقيقة حين كان يستعد الدائنون لإدخال ممتلكات أخيـه بكر في المزاد حضر محاولاً إنقاذه على الـرغم مـن رفـض بكـر المستميت بل وسبه ولعنه قائلاً له: "الخراب أحب إلي من النجاة علـى يدك", ورغم ذلك واصل خضر -وبإصرار- الاجتماع مـع الـدائنين لإنقاذ ما يمكن إنقاذه (ص١٨٥:١٨٩).

٢- أنه كاد يتعرض للقتل من أخيه بكر بعد أن داهمته حالة اندفاع، إذ ظن أنه قتل زوجه وأراد بذلك أن يكمل السلسلة بقتله للعشيق قائلاً له: "لقد قتلتها وسأقتلك يا تيس" (ص١٨٩: ١٩٠).

٣- رغم ثرائه في الغربة إلا أنه لم يفكر في الزواج، وقد أكـد هـذه الحقيقة حين سألته زوجة أبيه (الأولى) هذا السؤال قائلاً:

- "لم أنس أسرتي، ظلت تعيش معي في الخارج وكذا كرهت الـزواج في الغربة" (ص١٩٠:١٩١).

٥- أنه طلب من الست فتحية مقابلة رضوانة واشترط أن تتم المقابلـة ليلاً، متجنباً الأنظار وذهب يحمل بين جنبيه دوامة، ويضـمر أيضـاً تصميماً (ص١٩٢). ثم من خلال الحوار الرائع الذي دار بين رضوانة وخضر نفى كافة الظنون في أنه جاء لينتقم أو أن ذاكرة الماضي قـد أثرت عليه، وفهمت رضوانة بغريزة المرأة أنه يحبها وإذا كان كـذلك فلماذا رفض محاولتها وعرضها للجنون واللعنة. ويعبـر عـن ذلـك باقتدار نجيب محفوظ "فرنا إليها بنظرة هشة تسيل اعترافاً بعثت النظرة في أوتارها عزف النغم فتوهج جمالاً كالشعاع واكتسى بحلـة الظفـر المبهرجة.

- إذن لم يكن أنت الذي قال لا..

فقال بأسى:

- شخص فيّ قالها.

- ثم شخص آخر ماذا يقول؟

قال بجدية بالغة:

- كنت أحبك وما زلت أحبك, ولكن علينا أن نفكر طويلاً (ص١٩٧).

ولكنه انتظر طويلاً، وباتت الحارة تتساءل: لم لم يتم الزواج؟ وحاولت رضوانة من جهتها أن تسعى لدى محام تستشيره في طلب الطلاق من زوجها الهارب، أو نما الخبر إلى شقيقها إبراهيم، وتناقش معها طويلاً في ذلك وانتهت المناقشة بقتلها، ودفنت رضوانة وغيب الجن إبراهيم، واستمر بكر في غيابه (ص١٩٨:٢٠٤).

ويعد قتل رضوانة أكبر مأساة وإحباط قد واجهه خضر فهل، هل يستلم لأحزانه أم يتسامى عن هذه الكارثة المروعة التي ألمت به؟

٦- عكف على تربية أولاد شقيقه بكر وأولاد رضوانة في نفس الوقت، بل ظل أعزب حتى قارب الأربعين، وهذا شيء مستغرب في وقت كان يتم فيه الزواج والفتى ربما لم يبلغ العشرين.
٧- يتضح حبه لرضوانة في أنه حين تزوج بعد كل هذا العمر، تزوج بشقيقة رضوانة وتدعى "ضياء" والتي كان بها شبه كبير من رضوانة، وكانت من الناحية العقلية ساذجة، كما أنها كانـت لا تهـتم بزينتهـا، وكانت عاقراً. ورغم ذلك لم يفكر في الاقتران بغيرها، ورغم أن ذلـك كان من الأمور المألوفة حين ذاك (ص٢٠٥).
٨- وهب حياته تماماً لرعاية أولاد شقيقه، ورغم أن سماحة جلب لـه العديد من المآسي إلا أنه واصل اهتمامه به حتى النهاية، بل لا نعـدو الحقيقة إذا قلنا إنه رغم تقدمه في العمر لم يفارقه هذا الاهتمام، بل لقي مصرعه من جراء اهتمامه بابن شقيقه الهارب "سـماحة" (صـفحات متفرقة من ٢٦٣،٢٦٠،٢٥٠،٢٤٨،٢٢٤،٢٢٣،٢٢٢،٢٠٤).
لماذا واظب خضر وبإصرار على هذه التضحية، مضحياً بذاته، مهتماً بأبناء شقيقه الذي أساء إليه، ووالدتهم التي قتلت غدراً بعـد أن كـادت اللحظة تصفو؟
إن ما فعله خضر يندرج تحت السمو، والتسامي والحـب، وشخصـية خضر توضح بجلاء كيف يسمو برغباته، وكيف يفيـده الحـب إلـى الأفضل. إذ ماذا يفعل فينا الحب؟!
فالحب يجعلنا نعرف ونصل ونتحقق وندرك، أنه القدر الفائقـة علـى الفهم، الإحساس والإدراك، يجعلنا الحب أيضـاً مخلصـين، أوفيـاء، نعطي، نلتزم، نتفاخر، نتعاطف.. نتواضع والأهم أن نتسامح، يجعلنـا

نسمو، نعشق الفضيلة، يمنحنا الإيمان، الثقة، الحماس، تبـذل حياتـك، ووقتك وجهدك من أجل إسعاد غيرك، تتجرد نهائياً من شوائب الأنانية والتمركز حول الذات[1].

كما أن الحب يجعلك تهدأ بعد أن كنت ثائراً متحفزاً تلهث.. إيقاع الحياة كلها يهدأ ثم لا يعنيك توحش الحياة والبشر، وتدافعهم وتكـالبهم ثـم لا تقلق لقصر الحياة وزوالها. إن الحب يجعلك أنت كما أنـت تكتشـف ذاتك، تكون على طبيعتك، تكاد أن تطابق ذاتك الداخلية مع مظهـرك الخارجي، وهذا قمة السواء النفسي.

أليس كل ما سبق ينطبق على شخصية النبيل خضر سليمان الناجي!!

---

(١) عادل صادق: "معنى الحب"، "كتاب الحرية"، العدد ٣٠، ١٩٩٢ -القاهرة.

(٨)

سماحة بكر سليمان الناجي

الركض خاف الأحلام الجميلة

لقد صهرته المحن، وطبق عملياً قول والده بكر "الإنسـان قـد تجنـه النعمة، ولكنه يلقى الحكمة على يـد الإفـلاس والمحـن" (ص١٨٨)، وسماحة قد خبر الأمرين، إفلاس والده (بكر) بعد أن استغرق في جمع المال وجعله هدفاً محاولاً إرضاء والدته رضوانة ولكن أبداً لم تتغيـر، وعم (خضر) هارب بعد فضيحة لاكتها الألسنة، وجدة (سنية) بسلوكها الشائن والذي انتهى بفضيحة هروبها مع شاب سقاء، ثـم هـروب أو اختفاء والده (بكر) بعد أن ادعى أنه قتل زوجه وكـان يحـاول قتـل خضر، ثم تنتهي الأحداث بأن يقتل خاله إبراهيم الشوبكي رضوانة أمه ثم يقوم عمهم خضر بتربيتهم. وبدا "سماحة" وسط هذه المحن رافضاً، متعلماً، متوثباً لأن يقف أمام الأحداث، وإذا كانت البيئات السيئة تخلف العناصر الفاسدة، فإنها أيضاً قد تساهم في خلق شخصيات متوثبة إلـى النجاح والتحرر من أسر الفساد.

"كان سماحة متوسط الطول، فائض الحيوية، قوي العضلات، في وجهه ملامح شعبية من وجه جده سليمان، تنبسط تحت رأس نبيل تذكرنا بأمه رضوانة (ص٢٠٥).

هذا عن الملامح بصفة عامة، ويلاحظ أن محفـوظ قـد جعـل زواج سليمان وخطأه الأكبر بالاقتران من سنية السمري، وقفزه على طبقتـه الاجتماعية، وخيانة عهده للحرافيش هو بداية سيئة لأحداث متلاحقـة،

لكنه جعل ولده وحفيده به شبه منه يكون إنساناً نبيلاً، ألم يكن ذلك حال خضر ثم حال سماحة (في هذا المقام).

أما عن طفولة سماحة فكانت عادية باستثناء أنه أتم تعليمه في الكتـاب أو اكتسب من عالم الفضيلة شهامة وكرماً وبعض الورع (ص٢٠٥).

طفولة عادية لكن الجديد فيها أنه خط لنفسه طريقاً للورع، ساعده على ذلك عدة عوامل من أهمها التزام عمه خضر، ومحاولتـه أن يتجنـب أولاد شقيقه الدخول في عراك مع الواقع الشرس (لأن الواقع الـراهن ليس واقعهم). أما عن مراهقته، والبحث عن الهوية فقد ولع بمغـامرة الشباب والجسارة، وعبادة البطولة (ص٢٠٥) وسيتضح من الأحـداث في اللاحق أنه قد فهم جيداً تاريخ أجداده لأبيه، متخـذاً مـن مسـالك الفتوات هدفاً، واضعاً حياة ونقاء وأسطورة جده الأكبر عاشور الناجي هدفاً نبيلاً له. ولذا فقد تمرد على العمل الروتيني رافضاً أن يعمل فـي محل الغلال مثله مثل عمه خضر وباقي أخوته وشرع من فـوره فـي تنفيذ حلمه الجميل في أن يعيد الفتونة إلى سابق عهـدها إبـان فتـرة ازدهارها، وأن يسمو فوق الجراحات وسلسلة الفضائح واللعنات التـي واكبت عائلته في المرحلة الأخيرة. لقد تعلق بالأمل الجميل، ولم يكـن ذلك التعلق مجرد أحلام يقظة ينفس من خلالها عن رغباته المكبوتـة، وأحلامه الموءودة، ولكنه خطط وانتهى من الأحلام، وشرع من فـوره في تنفيذه حلمه وحلم عائلته:

١- رفض أن يعمل في محل الغلال بل قال لعمه في وضوح قاطع: "لم أخلق للتجارة يا عمي" (ص٢٠٦) لقد حدد هويتـه، وفهـم الخريطـة السيكولوجية لنفسه، وها هو يتحرك.

٢- اتخذ من بعض أفراد عصابة الفللي أصدقاء فشاركهم سهراتهم في الغرز، وحتى البوظة طاف بها عدة مرات، وحين استنكر عمـه هـذا المسلك قائلاً له: "لم يعد لنا من أمل إلا في التجارة والجاه" لكن سماحة تساءل: "ماذا كان أجدادنا يا عمي" (ص٢٠٥:٢٠٦).

٣- أنه اقترب من هدفه بصورة أكبر إذ بدلاً مـن أن يكـون مجـرد صديق لأحد عصابة الفللي انضم إلى العصابة وأصبح رجلاً من رجال الفتوة ورغم أن هذا المسلك أثار عليه سلوك الحرافيش وسلوك عمه إلا أنه قال لعمه: "رأس مليء بالآمال يا عمي" ومن خلال الحوار الصريح بينه وبين عمه يتضح أن سماحة ملهم جيداً بتاريخ أجداده، وأنه يعلم أنه مراقب من قبل رجال الفتوة، وأنه سيقفز إليها فـي الوقـت المناسـب (ص٢٠٦:٢٠٧).

٤- أن عمه حاول أن يُهدئه ويبعده عن هذا الطريق بأن يزوجه بكريمة إحدى أسر الوجهاء إلا أنه رفض بلباقة وأخبره أنـه فعـلاً يريـد أن يتزوج ولكن من كريمة كودية الزار، ويشير ذلك إلى انحيـازة التـام للحرافيش، ورفضه تكرار الخطأ الأكبر الفادح الذي وقـع فيـه جـده سليمان بتمرده على طبقته والارتماء في أحضان طبقة الوجهاء التـي لفظته وجرت عليه من اللعنات، والتي ما زال مفعولها قائماً حتى الآن (ص٢٠٨:٢٠٩).

٥- ويسعى من فوره وبمفرده في طلب يد مهلبية، وبعد أن قرأ الفاتحة مع والدتها واتفق على كل شيء أخبر عمه أن يشهد زفافه وكذا فتوتـه ورجاله، لكن الامتحان الصعب قد تجلى في أن المعلم يريـد مهلبيـة لنفسه، وأنه يطلبه هو أن يكون متحدثاً باسمه. ورغم صعوبة الموقـف

إلا أنه يقوم به (هكذا يتظاهر) عن طيب خاطر، ولكنه يوضح لمهلبيـة ولأمها ضرورة الهرب، وينتظرها ليلاً وتقتل مهلبية، أما هـو فيعـود مثخناً بجراحه إلى بيت عمه، والكل -بما فيهم أم مهلبية- قد شهد بـأن سماحة هو القاتل، مما اضطره إزاء هذا الموقف الصارم إلى الهروب والاغتراب بعيداً عن جناية لم يرتكبها، وإن اللعنات تلاحقه، لأن الفتوة يخشاه (ص٢١٠:٢٢٤) هنا يوأد الحلم خاصة بعد أن علم بأنه صـدر عليه حكم غيابي بالإعدام. ونظن أن هذا الفصل من حياة سـماحة قـد أغلق ليبدأ فصل جديد قد يكون مغايراً إلى درجة كبيرة لأحداث الفصل الأول تمثل في الاغتراب -أو التظاهر به، الاغتراب عن المكان الذي يألفه، والاغتراب عن اسمه الذي ينادى به، والاغتـراب عـن الـذين يتعامل معهم إذ عبر النيل واستوطن في بولاق، وأسمى نفسـه وحيـد أطلق لحيته، وحاول قد طاقته أن يتوافق مع الأحداث الجديدة. وقد عبر محفوظ عن هذه اللحظة "تكاثف في أعماقه الغربة والضـياع، ولكنهـا غربة مسربلة بالأمان على أي حال، ثمة وقت محدود لتأمـل حياتـه ودراسة مشاريعه، واحتضان نوازعه الثابتة للانتقام وفـرض سـيادة العدل، هكذا قبع الحالم الكبير في دكانه الصـغير، يتعامـل بـاللطف، ويدرع بالأمانة، ويقنع بالرزق الحلال ويتحدى المجهول" (ص٢٢٦).

ويكتسب الاحترام، بل ويخطوخطوة مهمة بأن يجعل تواجده مشـروعاً بالاقتران بمحاسن (بائعة الكبدة) وتنجب له: رمانة وقرة ووحيـد، ثـم تتلاحق الأحداث بصورة لا تخطر أبداً على البال ويخشى من انكشاف أمره فيواصل رحلة الهرب بعد أن يخبر حقيقته لزوجه وقبل أن تنتهي المدة بساعات يعود إلى منزله إلا أن يفاجأ أيضاً بزواج زوجـه مـن

المخبر ويظن أنه قتله، ويواصل رحلة الهروب ثم يتضح أن المخبر لم يقتل، ولذا يظل هروبه عبثاً لا طائل منه ويعلن عمه خضر مكافأة لمن يعيده. إلا أن عمه يقتل لأن الجميع -وخاصة الفتوة ورجاله- قد عرفوا أحلام سماحة في الفتونة، ثم يعود وهو طاعن في السن ليدفن بجـوار شمس الدين الناجي.

ولعل حياة سماحة تثير وبشدة قضية الاغتراب، ذلك الفصل الأكبر من حياته، تغرب شاباً ولم يعد إلى ذاته ومكانه وأهله إلا لكي يدفن فقـط. والاغتراب يكاد أن يكون معروفاً في كل مجالات النشـاط الإنسـاني والعلاقات الإنسانية، وإن كان يأخذ النصيب الأوفر في مجالات معينة من حياة الإنسان.

بيد أن اغتراب سماحة لم يكـن اغترابـاً مـن النـوع المرضـي، أو الاغتراب السلبي، بل كان إيجابياً، وحتى الدراسات النفسية لـم تفطـن إلى وجود مثل هذا النوع من الاغتراب إلا دراسات قليلة جداً ذلك لأن الاغتراب مرتبط بالوعي الإنساني، وأنه يعبر عن حرية الإنسان، وهو موجود بوجود الإنسان في المجتمع، وبارتباطه بوعيه، وبالتالي بالوعي الاجتماعي، كذلك هو تأثير نتاج الواقع الموضوعي والبيئة الاجتماعية والأنساق الحضارية.

كما أن الاغتراب ليس هو ضياع الأنا في الآخر، بل يمكن أن يكـون "محاصرة الآخر للأنا" كما أن الدعوة إلى ضرورة النظر إلى الاغتراب من جانبه الإيجابي ليس دعوى جديدة. فلقد جاء في الخبر أن رسـول ا صلى ا عليه وسلم قال: "بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ

فطوبى للغرباء". كما ورد الحديث بروايات متعددة تفسر لنـا معنـى الغرباء والمغتربين بأكثر من صورة إيجابية على الوجه التالي:

١- قيل: ومن الغرباء يا رسول ا ؟ قال: "الذين يصـلحون إذا فسـد الناس".

٢- قالوا يا رسول ا : ومن الغرباء؟ قال "الذين يزيـدون إذا نقـص الناس". ويفسر ابن القيم الجوزية معنى الزيادة في هذا الحديث فيقول: "فمعناه الذين يزيدون خيراً أو إيماناً وتُقىً إذا نقص الناس من ذلك".

٣- قيل: ومن الغرباء يا رسول ا ؟ قال: "ناس صالحون قليل في ناس كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم".

وتمضي بقية الروايات كلها في الإطار مبرزة الفهم الإسلامي العميـق للجانب الإيجابي للظاهرة الاغترابية.

أما عن معنى الاغتراب فليس من السهولة بمكان تقديم تعريف متفـق عليه ولكن خلال التعريفات التي قدمت نستطيع أن نلخص ما تعنيه في:

١- الاغتراب بمعنى الانفصال الحتمي لكيانات أو عناصر معينة فـي واقع الحياة.

٢- الاغتراب بمعنى الانتقال وهو يعني نبذ أو مصادرة حقوق الملكية المتعلقة بأحد الأفراد.

٣- الاغتراب بمعنى انعدام القدرة والسلطة، ويعكـس هـذا الشـعور بالعجز وانعدام القدرة Power Lessness وهو من أكثـر المعـاني تكراراً.

٤- الاغتراب بمعنى تلاشي المعايير Norm Lessness وهو معنـى يستند إلى بحوث العالم الفرنسي "دور كايم" والذي أوضح في دراسـته

للأنوميا أن المجتمع الذي وصل لتلك المرحلة يصبح مفتقراً إلى المعايير الاجتماعية المطلوبة لضبط سلوك الأفراد.

٦- الاغتراب بمعنى العزلة، وهو يعني عدم الاندماج النفسي والفكري، وهو نوع من الانفصال عن المجتمع وثقافته كنتيجة لانعدام التكيف الاجتماعي أو لضآلة الدفء أو لضعف الاتصال الاجتماعي للفرد.

٧- الاغتراب بمعنى الاغتراب النفسي، وهو معنى ينطوي على شعور الفرد كما لو كانت ذاته غريبة عنه، فالفرد يصبح -إذا جاز التعبير- منفصلاً عن نفسه [(١)].

ويتضح من كل ما سبق أن أياً من هذه التعريفات لا ينطبق على اغتراب سماحة بكر الناجي، لأن اغترابه كان من النوع الإيجابي، حيث لم ينفصل عن ذاته ولا عن بيئته، كما أن اغترابه أو غربته لم تكن بصورة عشوائية، بل كانت واضحة المعنى والدلالة والهدف.

وقد نجح محفوظ في أن يصور هذه الشخصية باقتدار وبراعة كنتاج لكل عوامل تحالف الأقدار والظروف ضد هذه الشخصية الحالمة والتي شرعت كما سبق وأوضحنا في تنفيذ حلمها بعودة مجد الفتونة والتعالي على شراسة الواقع، ولكن لم يكن "العبد في التفكير والرب في التدبير" لقد "فرض" على سماحة الهروب، ومع الهروب بدأت خيوط الحلم تتلاشى، فإن كنا نملك الحلم والأمل فإننا لا نملك العمر ولا الصحة ولا

---

(١) راجع:

(أ) أحمد خيري حافظ: "الاغتراب لدى طلاب الجامعة", رسالة دكتوراه غير منشورة، ١٩٨٠ - القاهرة.

(ب) سعد المغربي: "الإنسان وقضاياه النفسية والاجتماعية" - "الاغتراب في حياة الإنسان"، (ص٢٤٩:٢٩٣) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ -القاهرة.

ضربات القدر ولا قوانين الواقع، وربما كان هذا هو الدرس الأكبر في حياة الشخصية.

(٩)

وحيد سماحة الناجي

العربدة والشذوذ

هو ابن من؟ ابن سماحة الرجل الذي كان محملاً بالأحلام، بيد أن الظلم وقهر الواقع الذي تعرض له جعل حياته كلها مطاردة واغتراباً وهروباً وأمه من؟ إنها محاسن البولاقية بائعة الكبدة، المرأة التي تجيد فن الحب، وفن الصد، أمها امرأة سيئة السمعة، خاله مسجون، وجده لأمه قد قتل في مشاجرة. كما أن الأمور أيضاً لا تخلو من سوء في عائلة والده، أبوه المطارد، وجدته سنية الهاربة، ورضوانة التي قتلت ومرحلة الهوان التي تحيا فيها الأسرة.

أنجبت محاسن "رمانة وقرة ووحيد" (ص٢٣٥) في غربة سماحة عن ذاته (بدر، هذا هو اسمه الجديد) وعن حارته (حيث استقر في بولاق) وعن ناسه. كان سماحة يريد أن يلقن أولاده الدروس التي وعاها، وتاريخه، ولكن كيف يكشف المستور وزوجه نفسها لا تعلم عن ماضيه شيئاً حتى اضطر إلى الهرب، وذاعت قصة القاتل، وحبل المشنقة الذي يطارده واضطرت محاسن أن تنهض بدور الرجل (تقف مكان زوجها الهارب في المحل) ثم كانت النتيجة أنها عجزت عن الوفاء بقيام دور الرجل والمرأة، فكانت النتيجة هى تشرد الأبناء، وضياعهم، وحتى عدم انتظامهم في الكتاب، وكانت النتيجة أن الأم نفسها أضحت عاجزة أمام الأدوار المتعددة التي كلفت بها من غياب سماحة الاضطراري وهروبه

إذا أخذت "تحاكم سماحة وتدينه لما نزل بها، وتشتد في محاسبته كلمـا أثقلها الضجر أو عذبتها الوحدة" (ص٢٤٦).

وكيف لمحروم أن يعطي الشيء الذي يفتقد إليه للآخـرين، حتـى وإن كانوا أولاده، كانت النتيجة الطبيعة أن يضيع الأولاد في الطريق بـلا رعاية، حتى أن هذا الأمر نفسه قد لفت الأنظار لدرجة أن شيخ الزاوية قال لها: "الأولاد معرضون للشر يا ست محاسن".

فقالت بأسى:

- ما العمل؟ لم يبلغوا بعد السن التي يعدون فيها للعمل في الدكان.

- أليس الأفضل أن يلقنوا حرفة ولو على سبيل حفظهم من الطريق؟

فقالت مقتضبة:

- لن أتركهم تحت رحمة أناس لا ثقة لي فيهم.

وتضاعف سخطها وقلقها (ص٢٤٦).

واستمرت حالة التشرد، وعدم الرعاية، والإهمـال للأطفـال، إلا أنـه يتضح أن وحيد كان أكثر أشقائه تمرداً، واستمراراً في التشرد، وفيمـا يبدو فقد كان يعايره أترابه أنه ابن قاتل وسفاح وهارب فلم يصمت إزاء هذه الاتهامات، بل اشتد في معاركه مع الأولاد وكانت النتيجة أنه فقـد عينيه في إحدى المشاجرات (ص٢٤٧) ثم ظهر خضر وعرض رغبته في أن يقوم برعاية الأولاد عاشت الأم في صراع بين أن تحتفظ بهـم، وبين أن تتخلى عنهم وتحتمي في ظل رجل حتى وإن كانت لا تميـل إليه، وقد نجحت في النهاية في فض الصـراع بـأن سـلمت الأولاد وتزوجت من المخبر وقطعت كل صلة لها مع الأيام بـذكرى سـماحة وأولاده -ومع انتقال الأولاد إلى بيئة جديدة عاشـوا أيضـاً مرحلـة

الضياع، فتعدد الأشخاص الذين يقومون برعايتهم وكذا اختلاف المكان وتضارب الأقوال والشائعات.. كل ذلـك جعـل الأولاد/ الأطفـال لا يذوقون طعم الاستقرار، وقد عملوا في محل الغلال مع عمهم رضوان وعم أبيهم خضر، ثم جاء مقتل خضر، واسـتمرار هـروب والـدهم كمأساة لا حل لها، وهنا ظهر الشر والمجون على وجه وحيد والـذي قال بحنق:

قاتل عمنا يمرح ويدعى الفسخاني؟

وتساءل بمرارة:

- أكان عاشور الناجي يتصور هذه النهاية لذريته؟" (ص٢٦٣).

بدأ التمرد يجتاح وحيد، بدأ يعد نفسه لدور جديد، ضاق بمحل الغـلال، ثم ابتعد عن شقيقيه رمانة وقرة وكان متوسط القامة، وسـيماً، رغـم عوره، ولكنه بالقياس إلى الفسخاني (الفتوة الحالي) "مثل هرة بالقيـاس إلى خروف" (ص٢٦٤) إلا أن وحيد قد صمم على ضرورة التحـدي، امتلأت نفسه ببوادر القلق، لم يطق أبداً أن يمرح قاتل خضر، ظل هذا الأمر يؤرقه لدرجة أنه حلم كثيراً بهذا الأمر والحلم كما نعلم عبارة عن تحقيق رغبة عجز الفرد عن تحقيقها في الواقع. لكن وحيد بـدأ يسـير على خطى والده سماحة إذ انحرف عن خـط الأسـرة المتجنـب لأي مشكلة "فصادفه شيخ الحارة.. رغم فارق السن، وسهر معه كثيراً فـي غرزة الصناديقي وأنشأ علاقة طيبة مع صديقه أبو طاقية الخمار مـن خلال تردده بين حين وآخر على البوظة. له صبوات في العربدة، ولكن لم تفته أبداً صلاة الجمعة، حتى قال له مرة الشيخ إسـماعيل القليـوبي إمام الزاوية:

- هل يجمع ا   في قلب واحد بين الخمارة والزاوية؟

فتساءل وحيد بمرارة:

- ألا ترى قاتلاً يمرح وبريئاً يتعذب في الغربة؟" (ص٢٦٥).

لقد استطاع وحيد أن يجمع بين المتناقضات، بين الدين والفجور، بين الرغبة في أن يكون رجلاً، وبين كافة العوامل التي تجذبه إلى السلبية والاتكال واللامبالاة، ولكنه فيما يبدو ظل على الوعي متأججاً داخله عاجزاً في الآن نفسه عن حسمه. ولم يفارقه على الإطلاق الحلم الذي ملأ حياته ومن كثرة تكراره أضحى كالإلهام الصادق الذي يغزو فكر الأنبياء حتى اطمأن تماماً، وإن المعجزة ستحدث فعلاً، بل ذهب إلى الفسخاني وتحداه، وفي لحظة جنونية سريعة أومضت كومض البرق قهر الفتوة وأتباعه، واستطاع بلا مشاØ®ل وفي لمح البصر أن يكون الفتوة، محققاً حلمه، وحلم الحرافيش، ولكن أية أحلام تلك التي يريد الآخرون أن يحققها لهم، لقد تربى على الشذوذ والانحراف، تربية خاطئة، غير مستقرة أنتجت هذا الكائن المنحرف، ولذا حين سأله عمه رضوان:

- "حتى تحقق حلم أبيك الغائب؟

فأجابه بحذر:

- خطوة خطوة وإلا فلت زمام العصابة من يدي.

- هذه سياسة لا بطولة يا ابن أخي.

فقال بغموض:

- رحم ا   امرأ عرف قدر نفسه" (ص٢٦٨).

إن تكوينه النفسي قد أكد على أن الضمير لديه قد انعـدم، وأن نـوازع الأنانية، واستعجال اللذة، وحتى عدم الامتثال للواقع قد صـارت أحـد مكوناته النفسية. باختصار -وفي التحليـل النهـائي- أصـبحنا أمـام انحراف سلوكي من الصعب علاجه، ولذا فقد عبـر محفـوظ بحـدس صادق ونافذ إلى داخله وما يمور به "أخذ يستسلم لتيار الإغراء، فتقوى في نفسه نوازع الأنانية، وتضعف أحلام البطولة والعهد، وإذا به يشرع في إنشاء دار خاصة به، ويتمتع بكل جميل وطيب في الحياة، ويولـع أكثر بالبوظة والمخدرات، ويتمادى في ممارسة شذوذه حتى خرج بـه من السر إلى العلانية.. وعرف بشذوذه فلم يتزوج، وأحاط نفسه بفتيـة مثل المماليك" (ص٢٦٨:٢٦٩).

ويطرح ما سبق قضية الشذوذ والانحراف، وخاصة أن فرويد مؤسـس مدرسة التحليل النفسي -قد أكد أن الحياة الجنسية في الطفولة المبكـرة تكون متعدد الانحراف Polymorphous Perverse وأن أي انحراف في الكبر ما هو إلا امتداد لبذور كانت قد نمت وترعرت إبـان فتـرة الطفولة، وواضح أن وحيد كان يعاني من إغـراق جنسـي وإدمـان مخدرات وبوظة أما عن الانحراف الجنسي والمتمثـل فـي الميـول الجنسية المثلية Homosexuality فمعنيّ بها ميل إنسان إلى ممارسة الجنس بصفة دائمة مع نفس نوعه من الجـنس دون النـوع الآخـر. وتوجد الميول الجنسية في الرجال والنساء، وتبدأ في الظهور تحديـداً وبصورة واضحة في أثناء المراهقة، إذ يشعر الفتى أو الفتاة أنه لـيس ميالاً إلى الجنس الآخر بل لنوعه الجنسي فقط، ويـزداد هـذا الميـل ويقوى مع الوقت، ولا حيلة له أو لها في ذلك إلا أن يرضوا بقـدرهم

ويعيشوا حياتهم محاولين ما أمكنهم إشباع ميولهم المثلية كلما سـنحت لهم الفرصة، وقد يتضايقون من هذه الأمور وقد يسـلمون بهـا وقـد يمارسون في السر، وقد تصل الأمور إلى درجة العلن.

وكالعادة حاول العديد من العلماء أن يفسروا هذا الانحراف، وظهـرت العديد من النظريات، غير أننا يجب أن نؤكد حقيقة أنه لا يوجد تقسـيم للجنسية المثلية إلى إيجابي أو سلبي لأن الشـخص يمكـن أن يلعـب الدورين.

ولعل استعراض بعض النظريات التي اجتهدت في تفسير أسباب هـذا الانحراف يوقفنا على الحقيقة أو أحد أجزائها.

١ - النظريات البيولوجية:

وتذهب إلى أن الجنسية المثلية ترجع إلـى أسـباب بيولوجيـة مثـل اضطرابات الغدد الصماء أو إعطاء هرمونات غير ملائمة قبل الولادة أو عوامل خاصة بالجينات الوراثيـة، بـالرغم مـن أن العديـد مـن الدراسات لم تدعم ذلك الرأي.

٢ - نظرية التحليل النفسي:

حيث ذهب فرويد إلى أن الطفل بطبيعته يتميز بجنسـية كليـة غيـر متمايزة، ومن ثم فهو قابل للتوجيه نحو مختلف الموضوعات الجنسية، السوية منها والشاذة، ومع النمو وزيادة النضج فإن توجه الجنس يسير نحو الموضوعات السوية (الغيريـة) بينمـا يكتسـب رغباتـه نحـو الموضوعات غير السوية (المثلية) وعلى ذلك فالجنسية المثلية ما هـي إلا تثبيت غير سوي في مرحلة طفولية غير ناضجة, فـاللواط (بـين الذكور أما بين الإناث فيطلق عليه السحاق Lesbian) ينبثق من عقدة

أوديب السلبية حين يحب الطفل الذكر أباه ولكنه يتوحد Identificy مع أمه أي أن المثلية تتبدى نتيجة الفشل في كبتها.

٣ - نظرية التعلم:

حيث يؤكد علماء السلوكية على أن المتعلم والبيئة والظروف هي التـي توجه الفرد إلى الجنسية الغيرية أو المثلية. فمثلاً العقاب الصارم علـى سلوكيات الجنسية الغيرية في الصغر يسبب كراهية لها فإذا ما تقابلـت مع خبرات لادة أو سارة لسلوكيات الجنسية المثلية، فمن المحتمل جـداً أن يصير الفرد لذلك جنسياً مثلياً.

٤ - نظرية التفاعل:

يرى بعض العلماء أن النضج الجنسي المبكر لـبعض الأفـراد داخـل مجموعات الأصدقاء المتجانسة هو العامل الرئيسي في تبني الجنسـية المثلية ففي حوالي عمر (١٢) سنة، ولا يزال الأولاد يتخـالطون فـي مجموعات من نفس الجنس (ذكور أو إناث) تتاح مثيـرات الجنسـية المثلية في حين أن مثيرات الجنسية الغيرية لا تكون قد أتيحـت بعـد كبديل، أي أن الجنسية المثلية تأتي من تفاعل النضج البيولوجي للحافز الجنسي مع العوامل الاجتماعية.

٥ - النظرية الاجتماعية:

يؤكد علماء الاجتماع على أثر إلصاق Labeling صفة الجنسية المثلية لفرد ما. مثلاً لنفترض أن هنا صبياً صغيراً تبدو عليه -أو لا تبـدو- بعض مظاهر الأنوثة أو النعومة، هذا الصبي قد سمع أشخاصاً مؤثرين من المحيطين به يصفونه بأنه -كما يتوقعـون- مـن ذوي الجنسـية المثلية، فإنه سوف يستبد به القلق، وينشغل بتلك الصفة التي ألصـقت

به، وسيصير متنبهاً ومتلفتاً وبآلام إلى الميل الكامن Latent في نفسـه للجنسية المثلية، وتدريجياً سوف يضع نفسه بأنه فعلاً من ذوي الجنسية المثلية ويمارسها.

٦ - معطيات تجريبية:

حيث أجرى المعهد Kinsey دراسة شاملة حول أسباب الجنسية المثلية (١٩٨١).

انتهت هذه التجارب إلى التوصل إلى حقيقة أننا لا نعرف علـى وجـه اليقين أسباب الجنسية المثلية ومن المحتمل جداً أن هناك جنسيات مثلية متعددة Homosexualities وليس مثلية واحدة، وإذا صح ذلـك فـلا ينبغي أن نتوقع وجود سبب واحد للجنسية المثلية، بـل هـي أسـباب متعددة، كل منها يتعلق بنوع معين من الجنسية المثلية [1] وهـذا مـا نوافق عليه.

كما أن بعض العلماء ممن تصدوا لدراسة هذه المشكلة قـد وجـدوا أن بعض الرجال يندفعون لإشباع رغبات مكبوتة منذ الطفولة، ولا يكتفون فقط بممارسة الجنس بشذوذه، بل لوحظ انتشار الشذوذ الجنسـي بـين المدمنين على أنواع معينة من المنبهات أو المخدرات.

كما أن الإدمان Addiction له العديد من المحكات مثل:

(أ) الميل إلى زيادة جرعة المادة المتعاطاة وهو ما يعرف بالتحمل.

---

(١) راجع:

(أ) عبد الرءوف ثابت: "مفهوم الطب النفسي"، ١٩٩٣، الباب السـادس "الاضـطرابات الجنسـية"، مطابع الأهرام - القاهرة.

(ب) محمد سمير فرج: "الجنسية المثلية والعنة" - دراسة حالة في بحوث: المؤتمر السنوي السادس لعلم النفس في مصر، ١٩٩٠، الجزء الأول (ص٢٣١:٢٤٨) الناشر "مكتبة الأنجلو" - القاهرة.

(ب) واعتماد مظاهر فسيولوجية واضحة.
(ج) رغبة قهرية قد تدفع المدمن إلى الحصول على المخدر (أو اللـذة) بأي وسيلة.
(هـ) تأثير مدمر على الفرد والمجتمع.

وهذا ما صدق تماماً مع وحيد "لقد غدا الفتوة مضرب الأمثال بشـذوذه وشراهته في البر كله لا في الحارة وحدها. وقد مات على أثر هبـوط في القلب نتيجة الإفراط في البلبعة" (ص٣٢١).

حقاً لقد وعى وحيد ضخامة الدور المنوط به والأحلام التي ملأت حياته حتى صارت بالنسبة لهاأقرب أو مثل الرؤى -ولكن ما أعجـزه عـن التنفيذ هو بناؤه النفسي المنحرف، وأسلوب تربيته الذي لا دخل له فيه. مما جعله يغرق- باختياره أو قهراً عنه في الشذوذ واللذة لأنها طبيعته والقدر الذي لا يستطيع أبداً الفكاك منه.

(١٠)

زهيرة الناجي

المرأة التي لم تعشق إلا ذاتها

نموذج آخر يذكرنا بنموذج سليمان الناجي ذلك الرجل الذي تمرد على واقعه وانتقل إلى الطبقة الأخرى بثرائها فتغير من النقيض إلى النقيض وظل أبناؤه وأحفاده يتوارثون هذه اللعنة حتى وصلت قمتها في مسيرة زهيرة وابنها جلال.

وفعلاً زهيرة هذه فتاة لعامل يدعى عاشور وينسب نفسه بصدق إلى آل الناجي لانحداره من فتحية أم البنات زوجة سليمان الأولى هذا الرجـل أنجب خمس بنات وله بنت واحدة تبلغ السادسة ولم تتزوج فوافق عزيز على أن تعمل في منزلهم خادمة مميزة عن الأخريات (ص٣٢٣).

ومن السادسة حتى انتصاف مرحلة المراهقة.. مرحلة الأمل والبحـث عن الهوية والتمرد على الأنماط التقليدية حتى فوجئ الحضور بأن أمها تريد أن تزوجها من رجل (قريب جسمه من جسم البغل) يدعى عبـده الفران وبدا الأمر مضحكاً، فكيف لهذا الجسد الجميل والرقيق والـذي اكتسب رقته من البيئة التي مكثت فيها أن تقترن بهذا العبـد الأسـود, عارضت والدة عزيز وزوجه إلا أن أمها أصرت علـى إتمـام هـذه الزيجة لأنها منذ الطفولة قد حددت مصيرها وأنها ستكون زوجة لعبده (ص٣٢٤) ولكن بذكاء خارق يوضح لنا محفوظ طبيعة هذه الفتاة، إنها جميلة، وتدرك بأنوثتها أن لها موقعاً لا يستهان به عند كافة الرجـال، حتى إن عزيـز نفسـه الرجـل المتـدين قـد سـرح فـي جمالهـا

(ص٣٢٤:٣٢٦)، إضافة إلى تمتعها بذكاء حاد, وطموح طبقي لا حدود له، ورغم أنها انتقلت من الأبهة والعزة إلى بدروم حقير فقـد أخـذت تطبق قوانين الأسرة المطحونة، فخرجت إلى العمـل -لكـي تسـاعد زوجها كما أن العمل في هذه الطبقات ليس عيبـاً فسـرحت بـالملبن وبراغيث الست (ص٣٢٧:٣٢٨)، وخروجها إلى البيئـة ومعاركتهـا للحياة، واحتكاكها بكافة الأصناف قد جعلها تعرف كـم هـي جميلـة، وفاتنة، ومغرية، وغذى ذلك شعورها بالتمرد على وضـعها الطبقـي فسعت جاهدة إلى التمرد على واقعها، والارتماء في أحضان حياة قـد عاصرتها من قبل -حياة النعيم لأنها في نظرها هـانم ولا تقـل عـن الهوانم اللائي يسكن ويرفلن في هذا النعيم، وهكذا تكون هذا المفهـوم وغذاه دلائل وحجج من أرض الواقع، ولم يحطم هذا الأمل إنجابها من عبده الفران ولداً يدعى جلال، بل عد الإنجاب -وتحديد الولد الـذكر- من علامات ارتفاع أسهمها في سوق الرجال ثم تحقق حلمها بأن عملت عند رئيفة هانم كوصيفة (ص٣٢٨:٣٢٩) وهناك رأت نموذجاً آخر من الرجل -كان حريصاً وواضحاً يدعى محمد أنور- لمح لها بالحـب.. تاجر وثري ويستطيع أن يوفر لها الحياة التي تليق بمكانتها، فأخـذت تتمرد على عبده الفران وعلى واقعه وهي تدرك بذكاء الأنثى أن محمد أنور -التاجر- يريد الاقتران بها وأنه أضحى كعجينـة طيعـة بـين أصابعها، ثم نلمح وسط هذا التمرد أنها أبداً لا تحب التـاجر أو حتـى زوجها ولكنها تعشق حياة الثراء، وما الرجل الذي يحقـق لهـا هـذه الأمنية إلا محطة -تقف للراحة فيها قليلاً قبل أن تستأنف المسير وقـد

تنهدت وعبرت عن ذلك قائلة "وما الحب إلا متسول ضرير يزحف في أركان الأزقة.. وقالت لنفسها:

- ليس أتعس من الحظ السيئ إلا الرضا به" (ص٣٣٢).

وشرعت بذكائها في تنفيذ خطتها مستخدمة سلاح المكر والدهاء، حتى اضطرت رئيفة إلى أن تتدخل طالبة من نوح الغراب الفتوة أن يجبـر عبده الفران على تطليقها وقد تم ذلك دون إرادته ممـا أدى بـه إلـى الانحدار التام نحو البوظـة والإدمـان (ص٣٣٢:٣٤٠)، وسـقط أول ضحاياها دون أن تتأثر ثم تزوجت محمد أنور.

إلا أن العلاقة ساءت بينهما، استطاعت أن تقارن بـين حيـاة تـاجر وآخر.. تريد أن تتزوج من عزيز -التاجر الثري جداً- ومضت فـي تحقيق حلمها.. ثم أصبحت قصتها متداولة بين الرجال الكـل يصـعق أمام إغرائها، جسدها الجميل النبيل، بالرغم من أنها بلا قلب، وطلـب الفتوة من محمد أنور -تاجر البطارخ- أن يطلقهـا فاسـتدعى عليـه المأمور، ورآها المأمور فأعجب بها، الفتوة يريد الزواج منها وبدأت -كامرأة بلا قلب- تنفذ أوامرها وتشترط، فاشترطت على الفتـوة لكـي يتزوجها أن يطلق زوجاته الأربع لأنها لا تحب أن يكون لهـا ضـرة، وقد كان لها ما أرادت، إلا أن المأمور قتل الفتوة وأرسل لها المأمور، فوزنت الأمور فوجدته بلا قيمة من الناحية المالية، مجرد منصـب لا يغني ولا يسمن من جوع، فاستمالت عزيز -الرجل المتـزن والتـاجر الثري الذي تربت وهي صغيرة في منزله- فتزوجها رغم استنكار أمه وزوجه- إلا أن محمد أنور-الهارب- قد قتلها وهي عائدة من زيـارة للحسين (ص٣٦٢:٣٧٨).

امرأة كهذه، تصارع عليها خمسة رجال: عبده الفران - محمد أنور - نوح الغراب - المأمور - عزيز.. طلقت قهراً أو غصـباً مـن الأول والثاني قتل الثالث، ونفي الرابع، واختارت بذكائها الخامس لكن إلى أي الشخصيات تنتمي؟ إنها تنتمي بلا شك إلى الشخصية الهستيرية، ومـن أهم سماتها: الميل إلى التغيير وعدم الاستقرار والسطحية في العلاقات مع الآخرين، الميل إلى الاستعراض والمباهاة والمغالاة، فنجد الأنثـى تميل إلى الدلال والإغراء، والرجل يميل إلى الاستعراض والمباهاة كما نجد أن الانفعالات سطحية ومتأرجحة من النقيض إلى النقيض ولـيس لها صفة الدوام.

وفي بعض الحالات نجد هذه الميول مختلفة مـع صـفات الاعتماديـة والرغبة في الاستحواذ على الآخرين، وفي حالات أخرى نجد اتجاهـاً نحو التفعيل Acting out حيث يميل الفرد إلى إحلال الفعـل محـل الفكر، بل إن الطب النفسي يطلق على مثل هؤلاء المرضى تسمية ذات رنين سيئ فيوصمون بالسيكوباتية، حيث يميلون إلى الحصـول علـى اللذة، حتى وإن كانت على جثث الآخرين، والرغبة في تحقيق المكاسب العاجلة بغض النظر عما إذا كان الواقع يسمح بذلك أم لا، إضافة إلـى أن صاحب هذه الشخصية لا يطيق أن يكون بعيداً عن مركـز اهتمـام الآخرين.. ألم يحدث أن تم تداول قصة زهيرة في الحارة وفي الخمارة قبل أن تطلق قهراً من عبده الفـران (ص٣٤٠:٣٧٧) كمـا أن هـذه الشخصية تتعمد أن تثير الآخرين جنسياً ولذا توصف بالجاذبية الجنسية بالرغم من أنها في الواقع تعاني من البرود الجنسي، كما أنها -خاصة إذا كانت امرأة تثير العديد من المشاكل مع الرجال- سريعة الزواج لما

تبديه من عواطف دافئة وحماس واهتمام بالمظهر، ولكن سرعان مـا يفتر كل هذا بعد شهور وربما أسابيع قليلة من الزواج، ويكتشف الزوج أن المظهر الخارجي يختلف تماماً عن الجوهر الداخلي، وأنها تبالغ ولا تهتم إلا بالمظاهر إلى درجة الكذب وأنها تغالي في مطالبها غير عابئة بقدراته وإمكاناته لفرط أنانيتها، كما أنها تميل دوماً إلى أن تطلب مـن الآخرين مساعدتها، وتلقي باللوم على الآخرين، وتسـتخدم الآخـرين كوسائل لتحقيق رغباتها وما إن يتحقق لها ذلك تهملهم كأنهم لم يكونوا (ص٢٤١).

والشخصية العنيدة أكثر انتشاراً في المرأة عن الرجل ولا يرجـع هـذا إلى أسباب بيولوجية، وإنما يرجع إلى أسباب تاريخية اجتماعية جعلت المرأة تأخذ الجانب الاعتمادي السـلبي، فأصـبحت أكثـر اسـتعداداً وعرضة لاكتساب سمات الشخصية العنيدة، كما أن علاج مثـل هـذه الشخصيات صعب ويتطلب صبراً من المعالج، وصدق مـن وصـف الشخصية الهستيرية -خاصة الأنثوية- بأنها "الجحـيم لمـن يتعامـل معها". وإذا كان الكثير من العلماء ممن تصدوا لدراسة هذه الشخصـية قد ذكروا أن ذكاءها محدود، وأنا لا تتمتع بالنضج الانفعالي فإن حالـة "زهيرة" كما اتضح تناقض هذه "الدوجماطيقية" لأنها ذكيـة وناضـجة وتعرف ماذا تريد بالضبط، وأن الحب لديها لا وجود له، كما أنها لـم تعشق أبداً أي رجل وإنما عشقت ما يملكه هذا الرجل، كم يملك حتـى تقترن به، ولا يعينها أبداً غضب الآخرين أو حتى أشلاؤهم، وقد صور محفوظ بعبقرية فذة كوامن هذه الشخصية واستبطن داخلها فـي هـذه العبارات الفذة الموحية "ونعمت زهيرة بشعور رهيـف خيـالي مثـل

الإلهام المشرق، هو الفوز في جلاله والحلم في أبهته وكماله. والـدار الثروة والجاه وسيد الوجهاء. لم تبتئس بغضب عزيز ولا حزن ألفـت. وإن كان ثم كبرياء فهي سيدة الكبرياء أحق الناس به بما وهبها ا من جمال وذكاء، آمنت بأنها فتوة في إهاب امرأة، وأن الحياة المقدسـة لا تمتثل إلا للأقوياء.. أما الحب فطالما قهرته في سبيل ما هـو أعظـم وأحد، وطالما قالت لنفسها "لست امرأة ضعيفة مثل غيري من النسـاء" (ص٣٧٧).

وجاءت نهايتها الدرامية -وعلى يد من سعى إلى تطليقهـا وأعطاهـا مكانة الهانم- كرمز محمل بالدلالات بأن مثل هذه النماذج من النساء لا تصلح ألبتة في إنجاب الأولاد، وإذا أنجبتهم فسوف يكونون فاسـدين. وستظل -في جميع الأحوال- شخصية زهيرة مجسدة لحقيقة أن المرأة الضعيفة هي في حقيقتها قوية وصلبة وعنيدة وأنها تسـتطيع بسـلاح الإغراء والذكاء والدلال الأنثوي أن تصرع عشرات الرجال، وتخرب الديار، وتشرد الأطفال.

أليس هذا ما حدث مع زهيرة المرأة التي لم تعشق أي رجـل ولكنهـا عاشت وماتت وهي لم تعشق إلا ذاتها المتضخمة؟

(١١)
الشيخة ضياء الشوبكي
وفلسفة الجنون

تناول الأدب لظاهرة الجنون يحتاج فيما نرى إلى دراسة مستقلة الآن، هذا مهم من جهتين:

الأول: أنه يعكس مدى فهم الأديب لهذه الظاهرة الإنسانية بالغة القدم والتعقيد.

الثاني: أنه يوضح -بصورة ما- مدى التقارب أو التباعد بين النظرة العلمية، والنظرة الشعبية (إن جاز التعبير). (وقد تم إنجاز هذه الدراسة).

وشخصية الشيخة ضياء في ملحمة الحرافيش -رغم هامشيتها- تحتاج إلى وقفة موضوعية لكي نستوضح طبيعة شخصيتها.

لفقد تزوج خضر من ضياء الشوبكي صغر أخوات رضوانة، وهي بها شبه من رضوانة وفيها جمال أخاذ، وسرعان ما تبين له طيبتها غير العادية، طيبة النقاء والبساطة التي تقف على حافة السذاجة والبله، لم تلعب في الدار دوراً ذا شأن ولم تنجب أطفالاً، وتركت جمالها للفطرة بلا تألق ولا تزويق. ورضي خضر بحظه ولم يخطر له ببال أن يتزوج من أخرى" (ص٢٠٥). هذا هو المجمل العام الذي ذكره محفوظ عن طبيعة شخصية ضياء وكان من الممكن ألا تتزوج وتستمر بها الحياة، بيد أن الحب الكبير الذي يكنه خضر لشقيقتها رضوانة هو الذي جعله يحتفظ بذكراها، والشيء الثاني أنها تقطع ألسنة الناس "لماذا لم

يتزوج" وبالتالي ظلت محافظة على طبيعة شخصـيتها نظـراً لعـدم تعرضها لضغوط ذات شأن كان من الممكن أن تعجل بظهور أعراض المرض بصورة جد مبكرة، فواضح أن ذكاءها محـدود، وأن قـدرتها على التعامل مع مفردات الواقع الخارجي أيضاً محدودة، وواضـح - أيضاً- مدى الضحالة في الجانب الوجداني والانفعالي لديها، ولذا فـإن الشذرات التي أوردها نجيب محفوظ بعد ذلك قد أكدت على هذا الجانب المتدهور من شخصيتها.

- إذ حينما أراد خضر أن يزوج سماحة بابنة من أسر الأثرياء، رفض سماحة طالباً الزواج من مهلبية (بنت صباح كودية الزار) هنا "ضحكت ضياء ضحكة عالية دون أن توضح نظرتها البريئة سعادتها بالخبر أو أساها" (ص٢٠٩). وواضح أن هذا الانفعال (الضحك) في هذا الموقف لا يتناسب تماماً.

- ثم نجدها قد غرقت في الأحلام وتفسيرها لدرجة أنها أضحت مثـار الاهتمام (من قوم بسطاء يجهلون حقيقـة الأشـياء ويؤولونهـا وفقـاً لأهوائهم) من ذلك الموقف الذي تعرض له سماحة حـين طلـب منـه الفتوة أن يخطب له مهلبية. عند ذاك قالت ضياء إنهـا حلمـت "أنـك تمتطي بغلاً، تلهبه بسوط ولكنه يثبت في الأرض، كما قـال رضـوان "أحلام امرأة عمنا تستحق التأويل كما تعلم" (ص٢١٦).

كانت هناك بوادر واضحة عن عدم مناسبة سلوكها مع عمرها، ولكـن هذا السلوك عد من الكرامات والمعجزات، إذ كانت لهـا أحـلام ذات طبيعة خاصة وظلت الأمور تسير بصورة عادية حتى قتل خضر. (هذا

الضغط) قد فجر لديها آخر الخيوط التي كانت تربطها بـالواقع فمـاذا حدث لها.

لنقرأ معاً صورة محفوظ في هذه العبارات الواضحة وضوح الشـمس في شهر آب إذا انفعلت بجريمة قتل خضر بأن "تهاوت فـي أحضـان المجهول، جفلت من عالم الإنس، لقنت لغة الجماد والطير، احتمت من نضال الألم بكهف الأشباح. صارت شيخة، الحلم رؤيتهـا، والفنجـان نافذتها، والنبوءة الغامضة ترجمانها، وعشقت الجلباب الأبيض والخمار الأخضر والمبخر النحاسية، تتهادى عن الأصيل بين الساحة والميدان، تنفث الدخان العطر، تلوذ بالصمت، تتبعها جارية، تحدق بها الأعين.. حتى وحيد الغاضب قال لها:

- دارك يا امرأة عمي، الزمي دارك إكراماً لـذكرى عمنـا خضـر فنظرت إليه ببلاهة وقالت:

- رأيتك في نومي ممتطياً جرادة خضراء. فيئس وحيد من مناقشـتها ولكنها سألته:

- ألا تدري معنى ذلك؟

فلم يكترث ولكنها قالت تجيب نفسها:

- إنك خلقت للهواء" (ص٢٦٣:٢٦٤).

ثـم اسـتمرت فـي رحلتهـا تلـك عنـد كـل أصـيل (ص٢٧١)، (ص٢٨٤:٢٨٥)، (ص٢٩٢) إلا أنه يتضح أنه هناك تفسيرات، وأصبح سلوكها معتاداً لا يثير الاستياء لدرجة أن رمانة وهو يهم بالسفر وكانت تمر بمبخرتها وعيناها دامعتان قال لـه: "الشـيخة تبـارك سـفرك!" (ص٢٩٢) وحين تقدم بها العمر أضحى لها جناح خـاص ولا يجـرؤ

أحد على دخوله ورغم ذلك اقتحمته زوجة قرة حين طـال غيابـه إذ همست لها "يا شيخة ضياء ما رأيك؟.

فلم يطرق الصوت باب دنياها المسحورة فهمست بحرارة:

- قولي شيئاً يا شيخة ضياء.

ولكن ضياء لم تسمع، لم تحس، لم تولد" (ص٢٩٧) إلا أنه إذا كانت قد عجزت عن رحلة المسير هذه فعند الأصيل من كل يوم كانـت تـدلي بالمبخرة من مشربية حجرتهـا، وحتـى الـدموع لـم تعـد تسـعفها (ص٣٠٠). وحتى حين عاد سماحة ضريراً في أواخر أيامه وسأل عن أحوالهم وتحديداً عن زوجة خضر قالوا له: "في جناحها، شيخة غائبـة في ملكوت ا " (ص٣١٥).

ثم تكون نهايتها قتلاً حين اقتحم عليها رمانة (الشرير) جناحهـا وهـو سكران، ودار حول مجلسها وهو يقهقه وراح يقول لها ساخراً: "إنـك أصل البلاهة والبلاء وظلت المرأة غائبة فقال:

- إنني في حاجة إلى نقودك فأين تكتنزيها يا معتوهة؟!

وقبض على يدها وأنهضها بعنف، ففزعت المرأة وضربته بالمبخرة في وجهه عند ذاك جن غضبه، فقبض على عنقها وشد بعنف فلم يتركهـا إلا جثة هامدة" (ص٣٢٠).

وكان مقلتها هو سجناً لرمانة، واعترافه لعزيز أنه دبر لقتل والده ودله على مكان الدفن، ولم يخرج من السجن إلا ميتاً، وحين علمت (طليقته) انتحرت وكأنه كان من الواجب أن تضحي بحياتها من أجـل كشـف الحقيقة. وهنا نتساءل عن طبيعة شخصية الشيخة ضياء: هل كانت حقاً كما قال رمانة -معتوهة أم مجنونة أم مجذوبة إن ما وصـفه نجيـب

محفوظ عن شخصيتها يؤكد أنها كانت تعاني من الخبل (أو الجنـون) المبكر، والذي انفجر حين جاءتها الأخبار بقتل زوجها. وكلمة مجنون لا وجود لها في قاموس المصطلحات الطبية وإن كانت تستعمل ولهـا شهرة ذائعة.

والذهان Psychoses تضم مجموعة من الأمـراض والاضـطرابات النفسية الشديدة والتي تتميز بتأثيرها الخطير على الشخصـية، بحيـث تعوق الفرد عن التوافق مع من يعيشون معه، وعن العمل المنتج، بـل غالباً ما يصل الأمر إلى درجة أن يصبح الشخص المـريض خطـراً على نفسه وعلى الآخرين مما يستوجب عزلة في مصحة عقلية.

وهناك من الناحية الطبية تقسيمات متعددة لهذه الأمراض، وهـل هـذا المرض عضوي (أي له أسباب عضوية يمكن كشفها بالوسائل العلمية) أم لا توجد أسباب عضوية محددة وتكـون هنـا الأسـباب وظيفيـة Functional أم ينشأ المرض من كلا السببين؟!

وإذا كان الأمر كذلك فهناك تقسيمات كثيرة للاضطرابات الذهنية منها:

١- جنون الهذاء (البرانويا) Paranoia: حيث توجد لـدي المـريض هلاوس سمعية وبصرية أو شمية أو حسية (لان سند لها من الواقـع) إضافة على أفكار هذائية قد يعتنقها مجنون الهذاء وهي كثيرة وإن كنا يمكن أن نصنفها في فئات شائعة ثلاث هي:

(أ) هذاء العظمة Delusion of Grandeur

(ب) هذاء الاضطهاد Delusion of Persecution

(ج) هذاء الغيرة Delusion of Jealous

٢ - الاكتئاب الذهاني Depression, Melancholia: وهو يعد حالة من الاضطراب النفسي تبدو أكثر ما تكـون وضـوحاً فـي الجانـب الانفعالي حيث يتميز بالحزن الشديد واليأس من الحياة وقلة النوم وبطء الحركة.

٣ - الهوس Mania: ومثله مثل الاكتئاب حالة مرضية تبدو أوضح ما تكون في الجانب الانفعالي للشخص. ولعل أهم مظاهر الهوس:

(أ) الشعور بالنشاط والخفة والرضا عن النفس.

(ب) السرعة والتعجل في كل العمليات العقلية، وعدم استقرار الانتباه.

(ج) التعرض لأفكار هذائية تبين عن امتياز المريض وعظمته وإلقـاء النكت، وضحكه الكثير.

٤ - الفصام Schizophrenia: ولعل العرض البـارز هـو الـبلادة الانفعالية، فالمفصوم لا يكترث للحوادث التي تهز مشـاعر الإنسـان العادي، ولا يهتم بأصدقائه أو أسرته أو عمله، ويهمل نفسه، كما يظهر عرض التفكك، فيضحك حين لا يوجد باعث على الضحك (أو العكس).

٥ - خبل الشيخوخة Senile dementia: هو اضطراب عقلي يصيب الشخصية نتيجة تقدمها في السن، ومن أعراضه نقص الذاكرة خاصـة للأحداث القريبة، نقص القدرة على التركيز، الأنانية، نقص الاهتمـام بالأحداث الجارية، وسرعة الغضب والتقلب الانفعالي.

٦ - الصرع Epilepsy: هو اسم يطلق على مجموعة من الأمـراض العصبية مظهرها الأساسي هو التشنج، كما أن نوبات الصرع مختلفـة الشدة، وأيضاً مختلفة التكرار، كما أن نوبة الصرع قد تفاجئ المريض

في أي وقت دون سابق توقع، فإن المصروع دائماً ما ينصح بضرورة أن يرافقه أحد خاصة وإذا كان خارج المنزل [1].

ذلك باختصار ما ذكرته بعض المراجع التي اهتمت بموضوع الـذهان أو الأمراض العقلية ويثير هذا تساؤلاً:

إلى أي مدى كان وصف نجيب محفوظ لشخصية الشيخة ضياء مطابقاً لوصف أعراض مرض أو فئة إكلينيكة محددة (نظن أن هـذا يسـتحق دراسة مستقلة مع تناول أكثر من نموذج للجنون في قصص محفـوظ) لكن نستطيع القول بأن ما وصفه محفوظ عن شخصية الشيخة ضـياء قريب الشبه من شخصية المجذوب، حيث إن الصورة العامة للمجذوب أنه رجل في الكهولة أو بدايات الشيخوخة، حـاد النظـرات، مشـوش الملامح، مهلهل الملابس، يمسك في يده عصا أو سيفاً خشبياً. هذا عن الرجل أما المرأة فكما وصفها محفوظ في النص صـوتها جهـوري، نبراته متميزة، كما أنها قريبة الشبه جداً بشخصية الزاهد أو الـدرويش فهي تأخذ من الأول تدينه وعزوفه عن الدنيا أو ابتعاده عن الزخارف، والاكتفاء بالحد الأدنى من الطعام والحد الأدنى من الملابـس والحـد الأدنى من احتياجات الحياة. كما أنهـا تأخـذ منـه المعرفـة بالـدين والارتباط بعالم المثل أو عالم المتصـوفة، والزاهـدين فـي الحيـاة، والكاشفين لزيف متعها، وهي تأخذ من الشخصية الثانية سياحتها الدائمة

---

(١) راجع:

(أ) أحمد عكاشة: "الطب النفسي المعاصر"، الطبعة الخامسة، ١٩٩٢ مكتبة الأنجلـو المصـرية - القاهرة -فصل الذهان.

(ب) سعد جلال: مرجع سابق.

(ج) فرج طه: مرجع سابق.

في البلاد، وبعض سماتها كالعصا أو الألوان الخضراء، وما هي عليه من سذاجة وتسليم ورضا بالقليل، وتواكل وإيمان مطلق بأنه على حق، وأنه يعرف طريقه إلى نعيم الآخرة.. ومـع هـذه الاختلافـات إلا أن شخصية المجذوب تجمع بين مزيج من عدة شخصيات[1].

ونظن أن هذه الصورة العامة للرجل المجذوب -أو للسيدة المجذوبـة- هي ما وصفه نجيب محفوظ، مضيفاً إليهـا حـدس الواقـع، صـدق التنبؤات.. صورة تجعلها تقترب من تنبؤات الأنبياء.

(١٢)
والدة محاسن البولاقية
الإدمان والسخرية

حين أراد سماحة أن يتزوج في غربته، واختار محاسن، وسـأل إمـام الزاوية عنها ولم لم تتزوج حتى الآن استغفر الإمام وذكر "كانت أمهـا سيئة السمعة" (ص٢٢٨).

وبالكلمات القليلة المختصرة التي ذكرها محفـوظ فـي وصـفه لهـذه الشخصية بدت ساخرة، تجلب المتاعب لسماحة (لأنه تزوج في بيتهـا) لأنها كانت "عجوزاً ضريرة، تشهد قسماتها العتيقة بجمال دابر وكانت وقحة اللسان، قدت كلماتها من رصاص، فلم تعرف المجاملة حتى فـي شهر العسل والمجاملات" (ص٢٢٩).

---

(١) فاروق خورشيد، مرجع سابق، ١٩٩٦ -القاهرة.

ثم يورد محفوظ نماذج من سخريتها ونقدها اللاذع، إذ طلب منه زوجه أن يحلق لحيته "وإذا بحماته تبعته قائله وهي تقهقه بصوت داعر:

-استعمليها بدل المقشة!

ولم يكن يستخف لها ظلاً ولا يغفر لها ماضياً فحنق عليها وقال بحدة:

- أوافق بشرط أن نكنسك بها.

فاشتعلت العجوز بالغضب وهتفت:

- احترسي من هذا الرجل فإن قلبه أسود" (ص٢٣٠).

موقف آخر ذكره محفوظ ويشير إلى عمق حدس هذه المرأة، إذ اتهمت ابنتها بأنها تأكل أفضل الطعام وترمي إليها بأسوئه، وأن زوجها رأس البلوى وحين أجاب سماحة مصبراً نفسه "الصبر.. الصبر" قالت: ستسبقني إلى القبر. وحين قال لها رداً على سخريتها -طريقنا على أية حالة مختلف" فتقهقه قائلة:

- أراهن على أنك قتلت أباك في الصعيد وجئتنا هرباً من حبل المشنقة!" (ص٢٣٠:٢٣١) وظلت العجوز هكذا تعامل زوج ابنتها وألصقت به تهمة "قتل أبيه" كلما نشب أي خلاف بين ابنتها وزوجها (ص٢٣٢:٢٣٣). لدرجة أنه حينما انكشف ستره، وذاعت قصته، وهرب من منطقة بولاق حتى ذكر الناس "لم يكتشفه إلا حماته وإن تكن امرأة سوء مثله" (ص٢٤٢).

أما عن نهايتها فكانت مأساوية إذ سقطت من نافذة الصالة المطلة على المنور فتهشم رأسها. لعله من حسن حظ بدر الصعيدي أنه كان وقت ذاك في دكانه وجرت الإجراءات سراعاً وبلا عرقلة حتى شيعت القتيلة إلى قبرها (ص٢٣٣).

أما عن قصتها الحقيقية وتاريخها فقد روتهـا ابنتهـا بكلمـات حـادة وصريحة وواضحة إذ عددت محاسن مزايا أمها التـي لا يجـوز أن تنسى.

كانت تحبها رغم مشاكستها السطحية، ومن قبل أحبت أباها إلى درجـة العبادة، وشد ما تحطمت عند مصرعه في عز شبابه، وشد ما تحطمت عندما قضي على أخيها بالتأبيدة. وأدمنت الأفيون فاضطرب سـلوكها واتهمت بكل سوء. هكذا فقدت بصرها فزادت تعاستها.. وقالت أيضـاً إنها كانت من أجمل بنات بولاق، وأنها آثرت الزواج من أبيهـا علـى الاقتران بقصاب غني فلم تكن تافهة أبداً (ص٢٢٣:٢٢٤).

هذا الملخص الوفي لتاريخ هذه الشخصية إنما يوقفنا على عـدة أمـور هي:

١- تمتع هذه السيدة بدرجة من الإصرار والتمرد إذ أخذت من اختاره قلبها ولم تنجح الأسرة في فرض "القصاب" الثري زوجاً لها.

٢- أنها اختارت وتحملت مسئولية الاختيار بحب ورضا واقتدار.

٣- أنها واجهت عدة ضربات قاصمة تمثلت في:

(أ) موت زوجها -بعد فترة قصيرة من اقترانها إذ لم تنجـب إلا ولـداً وبنتاً.

(ب) أن ابنها حكم عليه بالتأبيدة في أعقاب مصرع والده.

وبالتالي لم تستطع أن تتحمل هذه الضغوط/ الكوارث فأسـلمت نفسـها للإدمان. خاصة إدمان أو "استحلاب الأفيون" ويبدو أن الإنسان -منـذ عصور ما قبل التاريخ- وهو في سعي دائم للبحث عـن أي طريقـة يجعل بها حياته أكثر قبولاً وأكثر لذة، وفي نفس الوقت تلطف وتقلـل

المتاعب التي تصاحب -بالضرورة- الوجود الإنساني (على الأقل وجوده هو).

ورغم أن اكتشاف المخدرات ليس شيئاً حديثاً في عمر البشرية، وإن كان بعض أشكاله أو بعض طرق استخدامه وتعاطيه يعتبر نتاجاً حديثاً للبحوث الطبية والفارماكولوجية خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن مخدرات الحشيش والأفيون والكوكايين من النباتات الطبيعية والتي يمكن أن يقال إنها عرفت منذ العصر الحجري للإنسان. ومع استعراض تاريخ الإنسان مع المخدرات فإنه كان يستخدمها من أجل الأغراض الدينية وذلك خلق حالة من حالات التخدير تتراوح بين السبات التام والنشوة الخفيفة، اعتقاداً منه بأن هذه الحالات تسهل له الاتصال بعالم الروح أو بالقوى الإنسانية الرفيعة.

وهذا لم يقتصر على تعاطي المخدرات -الطبيعية في بادئ الأمر- على الجماعات الدينية وسحرة التطبيب والعلاج وإنما يشمل الأفراد العاديين، وفي بعض المناسبات يكون التخدير جماعياً كذلك عرف الأفيون منذ آلاف السنين خاصة في التهدئة والتسكين للآلام والرضا عن النفس، وعرف الأفيون كعلاج لكثير من الأمراض لدى المصريين القدماء منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد وذلك من القوائم الطبية المختلفة التي ذكر فيها.

وعلى هذا ولعهود قريبة جداً كان الأفيون في أي شكل من أشكاله دواء رئيسياً لكثير من العالم. ولا زال تعاطي الأفيون حتى الآن وعند كثير من الشعوب يستخدم في الطب الشعبي كعلاج لكثير من الأمراض، كما يوصف مسكناً لبعض الآلام مثل:

حالات الإسهال والدوسنتاريا والرشح وآلام المفاصل والروماتيزم وآلام الأسنان والبرد والرعشة فضلاً عن التعاطي لأغراض الكيف وتحقيق الشعور بالنشوة والراحة وتحمل العمل الناتج عن حالة الاعتماد الفسيولوجي على المخدر بسبب الإدمان [1].

لذلك الواقع، ونتيجة لهذا التاريخ الضارب بجذوره للأفيون لجأت إليه والدة محاسن، ونتيجة لفشلها في تحمل الضغوط المتوالية في اللجوء إلى الأفيون بهدف نسيان الهموم أو حتى تحملها.. كانت النتيجة المنطقية لذلك -ومع شروط أو محكات الإدمان.. وقعت دون أن تدري فريسة للإدمان. ثم مع الإدمان بدأت شخصيتها تتغير وتكتسب سمات المدمنين والتي تتخلص في العديد من السمات والتي يوضحها البناء النفسي للمدمن في:

١ - ضعف الذات، وعدم القدرة على فهم قوانين الواقع.

٢ - ضعف المبادأة والميل إلى الكسل والخمول.

٣ - النرجسية والمتمثلة في ضعف الانتماء والارتباط بالآخرين أو انهيار اعتبار الذات خاصة حين يواجه أي ضوء أو إحباطات، فقد كشف العديد من الدراسات التي أجريت عليهم أن صورة المدمنين - كما يدركونها عن أنفسهم- تشمل: العجز والضعف العام والإحصاء والفرار والخيبة والفشل والحاجة للرعاية والسند والسلبية.

٤ - أن العدوان في المدمن يمكن أن يتجه إلى الذات (في صورة الاستمرار في الإدمان مما يحيق به العديد من أضرار الإدمان العضوية

---

(١) سعد المغربي: "سيكولوجية تعاطي الأفيون"، ١٩٨٦، الهيئة المصرية العامة للكتب- القاهرة.

أو النفسية أو الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية) أو يتجه إلى الآخرين في صورة اعتداءات بدينـة وسـلوك إجرامـي، أو سـلوك سـخرية (وتنكيت) على الآخرين وعلى ذاته ومن هنا فإن اللجوء إلى المخدرات -بغض النظر عن نوعها- إنما يحقق صيغة التحليل النفسـي والتـي تتلخص في "إحباط لا يقوي الراشد على مواجهة آثاره النفسـية بحـل واقعي مناسب سواء كان ذلك نتيجة لضـخامة الإحبـاط أو لاسـتعداد نشوئي قوامه عدم القدرة على احتمال الإحباط. والأغلـب أن يكـون مزيجاً من العاملين معاً وتؤدي نتائج الإحباط الصدمي للنفس إلى توتر يؤدي بدوره إلى النكوص إلى أنماط من السلوك تميز مراحل الطفولة. خلاص من الموقف المحبط. وتختلف الأمراض النفسية بين سن الراشد ونمط نزعاته الطفلية مصدر صراع جديد فإن المـريض يعمـد إلـى ميكانيزمات دفاعية يحارب بها نزعاته الطفلية ويخفيها عـن إدراكـه الشعوري من ناحية، ويشبعها بصور مقنعة من ناحية أخرى.

أي أن التعاطي من وجهة نظر التحليل النفسي هو حالـة انتقـال مـن الواقع المحبط الفاشل للذات إلى نظام تخيلي عن طريق التخدير، وناجح تماماً بالنسبة للمتعاطي، وإن كان نجاحاً موقوتاً ومشروطاً بالتخدير.

ورغم أن كل مدرسة في علم النفس تفسـر الإدمـان مـن منطلقاتهـا النظرية والأيديولوجية فإننا نظن أن التفسير الذي قدمته مدرسة التحليل النفسي ينطبق تماماً على هذه الشخصية، حيث لجأت إلى الإدمان عقب تعرضها لإحباطين قويين (موت الزوج في خناقة/ سجن ابنها) لم يقـو أناها

(الذات) على تحملها وكانت النتيجة اللجوء إلى تعاطي الأفيون هرباً من هذا الحجم المروع للإحباط.

وقد أثبتت العديد من الدراسات الميدانية أن هناك علاقة بين التعـرض للضغوط واللجوء إلى الإدمان، خاصة وأن الدراسات الدينامية المتعمقة لشخصية المدمنين قد كشفت عن أنهم يتميزون ببنـاء نفسـي هـش، وصراع لم يحسم وبالتالي تكون أرضيتهم -أو مسرحهم النفسي- مهيأة للوقوع في الإدمان وما يجره من أضرار [1].

بقى أخيراً أن نوضح نقطة اتضحت بصورة جلية وهي أن هذه السـيدة كانت شديدة السخرية وتصب جام سخريتها على زوج ابنتها، وسماحة بدوره لم يكف عن رد سخريتها بسخرية أشد. وهذا يقودنا إلى الحديث بسرعة عن العلاقة بين التخدير وسـيكولوجية النكتـة أو السـخرية، ومعروف في سيكولوجية النكتة -كما فسرها فرويد- أن أحد الـدوافع الأساسية في خلق النكتة هو العدوان، ولكنه عدوان مكفوف لأن التعبير عنه صراحة أمر يثير الخوف والقلق، ولذلك تخرج النكتة على نحـو يخدع الرقابة والقوى الكابتة المعاقبة للعدوان، ولهـذا تتشـابه النكتـة والحلم في الصياغة والأسلوب الذي يعتمد على التكثيف والنقل والتورية والرمزية.

---

(١) راجع:

(أ) محمد حسن غانم: "الديناميات النفسية للاحتياجات والضـغوط ومركـز الـتحكم لـدى مـدمني المخدرات" -دراسة حضارية مقارنة، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب عـين شـمس ١٩٩٦ - القاهرة.

(ب) مصطفى سويف: "المخدرات والمجتمع" -نظرة تكاملية، عالم المعرفـة، العـدد ٢٠٥ ينـاير ١٩٩٦ -الكويت.

والنكتة حيلة يلجأ إليها الفرد لكي يريح نفسه من عناء الواجبات الثقيلة ويتحلل بها من الخروج عن المسئوليات، كما أن النكتة تقـوم بوظيفـة رفع اعتبار الذات واستعادة قدرها وقيمتهـا والإحسـاس بالكيـان أو الاطمئنان على قدرة الذات واستعادة الثقة بها.

والنكتة والتخدير وما يخلفان من مرح ونشوة يقومـان أساسـاً علـى ميكانزم الإنكار، وعلى ذلك فنحن نجد تشابهاً كبيراً بـين سـيكولوجية النكتة وتعاطي المخدرات، كلاهما أسلوب دفاعي عن الذات المحبطـة المكفوفة[١].

أوليس هذا هو ما حدث بالضبط مع والدة محاسن المحبطـة وسـماحة المحبط من خلال هروبه ووأد أحلامه بل وعقابه علـى جريمـة لـم يرتكبها؟!

(١٣)
جلال والبحث عن سر الخلود

تعد من وجهة نظرنا الشخصية حكاية "جلال" مـن أعظـم الحكايـات وأصدقها لأنها قامت على فكرة الموت وفلسفته وإمكانية تحديه (رغـم العلم المسبق، والتراث المتراكم للبشرية بأن الموت حق ولا يقاوم وأنه كأس وكل الناس لابد حتماً أن يتذوقه).

(١) زكريا إبراهيم: "سيكولوجية الفكاهة والضحك"، دار مصر للطباعة، القاهرة، غير مبين سنة النشر.

ومسألة الموت وفلسفته تحتل مكانة كبيرة في قصص نجيـب محفـوظ ذلك صراحة في معرض حديثه إلى جمال الغيطاني في كتاب: نجيـب محفوظ يتذكر (ط٣-١٩٨٧) [١].

إذ ذكر أن مسألة الموت قد انشغل بها كثيراً، بل وجعلها مصدراً مهمـاً لمجموعة "دنيا ا " وأخيراً يصل إلى نتيجة/ علاج لمثل هـذا الأمـر الفلسفي المحير "والأزمة الكبرى التي مر بها" إلى القول:لم أنتصر على فكرة الموت إلا بعد أن كتبت عنه، لا شيء يحررك من حاجة (شيء) معينة مسيطرة عليك إلا الكتابة" فكأن الكتابة نوع من العلاج النفسـي [٢]. وهي كذلك بالفعل خاصة وأن هذا الكتاب جـاء نتيجـة "دردشـة عادية" مما يجعله أقرب من وجهة النظر النفسية إلى تكنيـك المقابلـة الحرة الطليقة والقريبة من أسلوب التداعي الحر في العـلاج بالتحليـل النفسي، حيث يكون الفرد على سجيته، تاركاً العنان لخيالـه وأفكـاره، دون أن يكون مقيداً بموضوع محدد [٣].

ولكل ما سبق يتضح أهمية هذه الحكاية التـي -نسـتطيع أن نجـازف ونقول إن نجيب محفوظ ضفر فلسفته في قالب قصصي ليعبر من خلال جلال عن هذه الأزمة النفسية والتي ليس لها علاج أو مهرب [١].

---

(١) جمال الغيطاني: "نجيب محفوظ يتذكر"، ط٣، ١٩٨٧، أخبار اليوم- القاهرة.

(٢) عزت قرني: "فعل الإبداع الفني عند نجيب محفوظ" الإطار والتهيئة والعمليات (قراءة في نص "نجيب محفوظ يتذكر") عالم الفكر، المجلد ٢١, العدد ٣، مارس ١٩٩٣ (ص١٨٢:٢٤٣) الكويت.

(٣) سامية القطان: كيف تقوم بالمقابلة الإكلينيكية،الجزء الأول،مكتبة الأنجلو،١٩٨٢-القاهرة

(١) انظر:

(أ) كمال النجمي: نجيب محفوظ وأصداء معاصريه، كتاب الهـلال العـدد ٤٦٩، ينـاير ١٩٨٧- القاهرة.

(ب) لطيفة الزيات: نجيب محفوظ: الصورة والمثال، كتاب الأهالي رقم ٢٢, ١٩٨٩- القاهرة.

ذلك أن منظر تهشم رأس أمه من قبل أحد أزواجها "محمد أنـور" قـد ترك آثاراً لا تندمل في نفس الصغير، إضافة إلى أنه كان مرتبطاً بأمه أشد الارتباط، فكما هو واضح أن أمه (زهيـرة) كانـت لا تعشـق إلا نفسها، وما عبد ربه التي تزوجت به إلا مرحلة لا بد منها لكي تنطلـق إلى عالم الرجال، وتنتقل من موقع أن تكون مجـرد "بضـاعة" تبـاع وتشترى دون إرادة إلى إنسان يمتلك إرادتها، أيام قليلة ومتفرقة.. تلك كانت مجمل حياتها مع عبده الفران، أنجبت خلالها جلال وتنقلت به من بدروم والده إلى الدار الكبيرة لعزيزة هانم ثم رئيفة هانم، ثـم منـزل محمد أنور تاجر البطارخ وأضحت "هانماً" لها معجبون وعشاق ومـن كافة الاتجاهات.

نستخلص مما سبق مبلغ حياة الطفولة البائسة وغير المستقرة تلك التي عاشها جلال. ولذا فقد عبر محفوظ عن طفولة جلال بكلمات واضـحة "لم يكتب على طفل ما كتب على جبين جلال ابن زهيرة ابن عبد ربـه الفران من المعاناة والألم.. منظر تهشيم رأس أمه الجميلة انغرز فـي أعماقه كابوساً دائماً يعذب يقظته ويكدر أحلامه. كيف تأتى لهذه القسوة أن توجد، كيف أمكن أن يلقي جمال نبيل تلك النهاية البشعة؟ لماذا وقع ذلك، لماذا صمتت أمه؟ لماذا اختفت؟ وماذا جنى حتى يحرم من جمالها وحنانها وأبهة الحياة النابعة منها؟ لم لا ترجع الأيام إلى الـوراء كمـا تتقدم إلى الأمام؟ لم نخسر ما نحب ونعاني ما نكـره، ولمـاذا تـذعن الأشياء لأوامر صارمة، لماذا ينقل من الدار الفاخرة إلى مسـكن عبـد ربه الفران؟ ومن هو عبد ربه الفران، ولم يطالب بالاعتراف به أباً له؟ إنه ابن أمه بلا شريك، هي أمه ومبدعته ومهده وحبه. وإنهـا روحـه

ودمه، صورتها مطبوعة على وجهه، صوتها يشدو في أذنـه، وأمـل استرجاعها ذات يوم لا يخلو في قلبه. إن العظام المحطمة الغارقة فـي بركة من الدم لا تنسى إلى الأبد. (ص٣٨١).

إذن يتضح مدى الارتباط بالأم وإنكار الاعتراف بالأب. لكن هـذه الأم ستحدث العديد من الأحداث التي تؤكد أن اختياره للارتباط والانحيـاز للأم - كان اختياراً موفقاً لهذه الأسباب:

١- أن مصرع أمه قد أصاب المعلم عزيز (زوجها) بطعنة وحشـية لا دواء لها، وبدا بعد موتها كشبح قد فقد الأمل والنعمة.

٢- أن وضع والده عبد ربه الفران قد تغير بفضل الثروة التي ورثهـا جلال من أمه والتي أحدثت انقلاباً في حياة والده وتحول مـن مجـرد عامل في الفرن إلى صاحب الفرن، ومن مجرد ساكن في البدروم، إلى قاطن شقة فاخرة.

٣- أن سيرة أمه لم تنقطع عن الحارة، وكان يتم تبادل سيرتها حتى في البوظة.

٤- أن الأب انشغل أكثر بالبوظة والخمر مما جعل جلال يشتاق بشـدة إلى الأم ولذا حين استيقظ في إحدى الليالي طالباً أمه،أفاق والـده مـن سكره "قائلاً له: لا تتعجل ستذهب إليها بعد عمر طويل" (ص٣٨٢).

٥- أنه لم يسلم من معايرة الأولاد بأنه ابن زهيرة، متناسياً تماماً أنـه ولد (إنه بالطبع لابد أن ينتمي إلى الأب لا للأم) لكن هذا الإصـرار - حتى بدون أن يعي الأطفال- يؤكد أن أمه سيدة عظيمة.

٦- عرف من الآخرين سيرة والدته التـي تلخصـت فـي: "الغـادرة الخائنة، المزواجة، المتكبـرة، القاسـية، الخادمـة، الهـانم المزيفـة" (ص٣٨٤:٣٨٥).

ورغم أن هذه الأوصاف كان لا يدري مغزاها ويعود إلى الوالد لكـي يسأله عن السر في معايرته بالأم، والتصاق كل هذه الصفات بهـا، إلا أن الأب -كمحب وعاشق مخاص لها- كان يصفها بأنها مـلاك بـل كانت أجمل من الملائكة، ناصحاً إيه أن يصبر على كل هذا البلاء.. إلا أن جلال كان لا يصبر بل ويخوض المعركة إثر المعركة.

٧- حتى راضي -ابن القاتل- كان لا يسلم هو الآخـر مـن معـايرة الأولاد.. فكان يدافع عنه لأنهما يحملان صفة واحدة مشتركة "أنهما ابنا زهيرة".

٨- أن كل هذه "المهاترات والهتافات العدائية" من قبل الأولاد لـه لـم تزده إلا عناداً وأصبح يؤمن إيماناً راسخاً أن أمه كانت أعظم امـرأة عرفتها الحارة، بل غفر لها كل زلاتها، ووجد من تنقلها من رجل إلـى الآخر مبرراً بأنها "كانت تبحث عن رجل مثالي فلم يسعدها به الحـظ في حياتها التعسة القصيرة" (ص٣٨٧). ولكن يبدو أن كل ما سبق كان مقدمات أساسية لانشغال جلال بقضية الموت، حتى وصل به الاعتقـاد إلى درجة الإيمان بأنه قادر على تحدي المستحيل، فإذا كان قـادراً -بكافة الطرق- على أن يخرس كافة الألسنة التي تتشدق بحياة العظيمة الراحلة إلا أن الحقيقة التي لا جدال فيها أن أمه ماتت، والذي يموت لا يعود ولذا فقد اعترض على سيدنا في الكتاب حين طلب منه أن يحفـظ "كل نفس ذائقة الموت" إذ غضب وتساءل: لماذا الموت، ولمـاذا كـل

نفس لابد أن تتذوقه؟ فأثار غضب الشيخ فكانت النتيجة أن "مده علـى الفلقة ثم ألهب ظهره بالجريدة" (ص٣٨٤).

ولكن هذا العقاب، وعدم الاستمرار في الحوار والإقناع قد أدى بجـلال إلى التشبث أكثر بإنكاره. ثم تأتي "الطامة الكبرى" والتي كانت المنسق الرئيسي والبلورة الفكرية لها بموت قمر.. وقد تعذب كثيراً حتى وافقت الهانم على الاقتران معتمدين على عامل الزمن ريثما يغير من النفوس ولكن لا فائدة.. وقد تعجل جلال عقد القران، وبدا كل شيء يسير فـي طريقه الصحيح لكن قمر "اندفعت بها الوعكة فـي طريـق مجهـول فارتفعت الحرارة واضطربت الأنفاس واشتدت الآلام وتسلل الذبول إلى الوردة الناضرة مثل عدو ماكر خسيس خائن" (ص٢٩٦) ثـم كانـت نهايتها الحزينة والتي رفضها جلال، والتي ذكرته بمصـرع والدتـه، ولأن موقفه من الموت كان يحمل كمية هائلة من العداء، ولذا لم يفرق بين (القتل والموت) قتل أمه بيد زوجها السابق، ثم الموت (بلا أسـباب ظاهرة). هذا الموقف قد فجر لديه العداء فأخذ يـذرع الحـارة جيئـة وذهاباً بلا أدنى أسباب حتى إن شيخ الزاوية ابتسم له برقة لكي "يعزيه" قائلاً له: "إن ا   يمتحن من عباده الصديقين. فقال بازدراء:

- لا جديد فهذا ما يقوله الديك عندما يصيح في الفجر.

فقال الرجل:

- كلنا أموات أولاد أموات.

فقال بضيق:

- لا أحد يموت" (ص٢٩٩).

وأخذت أفكاره حول الموت تتبلور حتى وصل إلى الاعتقاد بأنـه فـي استطاعتنا أن نقاوم الموت، وأن الضعف والاستعداد النفسي له هو الذي يعجل بنهايتها، ويجعل هذا الغريب يتسلل إلى حياتنا ثم حول هذه الفكرة النظرية إلى حقيقة علمية حين تصدى في لحظة جنونية للفتوة وصرعه وتولى الفتونة، لدرجة أن والده قد أكد هذه المقولة قائلاً: "كنت مثلك في القوة ولكن الفتونة قلب وطموح" (ص٤٠٤). وانشغل بقضية الخلـود.. كيف يقهر الموت، كيف لا يستسلم وقد تضاربت الأقوال حول الخلود، فوالده عبد ربه يرى أن الخلود في أن يزوج وينجب (وقد سـمى مـا أنجبه خالداً، وهذا هو المفهوم الشعبي للخلود) "اللي خلف مـا مـتش"، وطائفة أخرى ترى أن الخلود في أن يترك الإنسان أعمالاً خيرية تجعل الآخرين يتذكرونه بكل خير، وأن "السيرة أطول مـن العمـر".. لكـن جلال كان لا يؤمن بكل هذه الأفكار وكان يرى أن الخلـود أن يظـل خالداً معمراً لا يموت.. وقد ذهب في ذلك إلى استشارة العطار والـذي أشار بدوره إلى الساحر، وقد أعطاه عدة شروط حتى يقتـرن بالجـان وبالتالي يضمن الخلود، وقد نفذ جلال الوصايا الثلاث بحذافيرها، ورغم اعتزاله عاماً عن الآخرين، إلا أنه بعد هذا العام استعاد ما فقـده، ثـم تأتي نهايته المأساوية على يد مومس كان قد تعرف بها وأنجبت له ولداً سفاحاً أطلقت عليه بلا حياء اسم جلال -قتلته بالسم وانتهت حياته نهاية مأساوية، لدرجة أن زينات حين أخبرته بأن الموت يطل مـن عينيـك الجميلتين استنكر ذلك وقال لها: "الموت مات يا جاهلة (ص٤٣٨) ثـم "جلال يتألم ولكنه لا يموت" (ص٤٣٨) وجلال لا يموت.

وواضح أن جلال قد تحدى قوة لا يمكن لأي قوة في العالم أن تتحداها، فقد اهتمت الديانات السماوية جميعاً بموضوع الموت. فللموت أهمية مركزية في كل ديانة، وفي كل نسق فكري وفلسفي متماسك.

كما أن الوعي بالموت له تاريخ طويل يسبق محاولة "سقراط" تهدئة ثورة أصدقائه وتلاميذه قبل أن يتجرع السم. وقد عرفت ملحمة جلجاميش للسومريين عام ٣٠٠٠ ق.م والتي يحتمل أن يرجع أصلها إلى ما قبل التاريخ وتعبر هذه الملحمة عن كل من الرغبة العميقة في النصر على الموت والإيمان في أن السحر أو المكر أو الفضيلة أو القوة يمكن أن تحقق هذا الهدف. ولم تكن إطالة العمر وتجديد الحياة موضوعين بارزين في "كتاب الموتى" فحسب بل أيضاً على امتداد الحضارة المصرية القديمة التي حفلت بموضوع الموت إلى حد كبير، كما اهتمت السيمياء Alchemy أو الكيمياء السحرية في العصور الوسطى بأمرين أساسين هما: إطالة العمر، وتحويل المعادن إلى ذهب. وفي هذا العصر الوسيط زادت بشدة معدلات الوفيات وانخفضت معدلات الأعمار، كما نشأت العلاقة بين التكنولوجيا والموت منذ وقت مبكر. وعلى الرغم من أن علم النفس قد نشأ في أحضان التقاليد الاجتماعية والفلسفية حيث كان الموت مشكلة بارزة فإن العالم الجديد كانت لديه أولويات أخرى ليبحثها ومع ذلك وضع فخنر كتاباً صغيراً عن "الحياة بعد الموت" ووضع وليم جيمس عام ١٩١٠ كتاباً عن "الخلود" أما ستانلي هول فقد قام بدراسة إمبيريقية مبكرة عن رهاب الموت أو مخوفة الموت Thanatophobia كذلك اهتم علم الاجتماع

بالموت.. ولعل أشهر الكتب في هذا المجال هو كتاب دوركـيم عـن الانتحار.

ويبدو أن قضية الموت تمثل اهتماماً سـيكولوجياً ولـذا فيوجـد عـدة دوريات عالمية اهتمت بالموت وبكافة الأبحاث التي تدور عنه.

إذ أسس في عام ١٩٧٠ مجلة "النهاية": مجلة المـوت، والاحتضـار، وهناك أيضاً دوريتان: مجلة علم الموت والاحتضار، ومجلـة التربيـة المتصلة بالموت. وفي عام ١٩٧٧ صدر أول مسح نقدي لسـيكولوجية الموت بين دفتي دورية العرض السنوي، كما صـدرت فـي السـنين الأخيرة بحوث متعددة عن خبرة الاقتراب من الموت Near death أو ما يسمى بعلم دراسة مشارف الموت [١].

وهناك كتب وجمعيات قد أسست لهذا الغرض [١].

كل هذا الاهتمام بالموت يتم على الرغم من أن كل إنساناً يعي تماماً أن الوجود سينتهي، وأن ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ (آل عمران: ١٨٥).

وإن الإنسان لا يدري متى وأين وكيف سيموت ﴿وما تدري نفس مـاذا تكسب غداً.. وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ (لقمان: ٣٤) و ﴿أينما كنتم يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ (النساء: ٧٨).

وإذا كنا لا ننشغل بالموت فإنه لا يغيب كثيراً عن فكرنا وحياتنا إذ نجد الفيلسوف الإغريقي هيراقليط عام ٥٠٠ ق.م يقول: إن كل ما نراه هو الموت All that we see is death ومن بين معاني هذا القول أن كل شيء إلى زوال، ومن بين العبارات المأثورة في التراث العالمي عـن

---

(١) أحمد محمد عبد الخالق: قلق الموت، عالم المعرفة، العدد ١١١، ١٩٨٧, الكويت.

(١) عبد الرءوف ثابت، مرجع سابق.

الاحتضار dying "ونحن نحتضر منذ اللحظة التي نولد فيها" ويـذكرنا ذلك بأن الحياة مستمرة، وأنها على الرغم من استمرارها فإنها مرتبطة دائماً بالموت، كما أن الموت نفسه أمر متناقض: إنـه قـوة تدميريـة وإبداعية معاً. لكن هل هناك فرق بين الموت والخلود؟ نعـم، ذلـك أن الموت يعني مفارقة الروح للجسد الذي هو من تراب، في حين تصـد الروح إلى المكان الذي يليق بها (هذا اعتقـاد)، أمـا الخلـود فيعنـي الاستمرار، واستمرار وجود الناس الروحي بعد موت أبدانهم، كمـا أن عقيدة وجود حياة بعد الموت كانت منتشرة، وأن الحياة بعد الموت تعني بالضرورة بقاء الجثة بعد الموت، وأن الجسد إذا أبيد هلكـت الـروح لأنها في حاجة إلى جسد تعود إليه، كما أن الخلود فيما يبدو -قد ارتبط بالسحر عند المصريين القدماء إذ كان يوضع مع المتوفى بردية تحتوي على عدد عظيم من التعاويذ والصيغ الدينية، وكان الغرض منها تسهيل الطريق للمتوفى حتى يصل إلى جنة أوزوريس ولكن يجب عليه قبـل الوصول إلى هذه الجنة أن يعبر طريقاً شاقاً تكتنفه الأخطار [1]. وهكذا يتضح أن قضية الموت والخلود قد شغلت الفكر الإنساني، ومن يحصر التراث الإنساني في كافة المجتمعات فسوف يعثر علـى العديـد مـن التراكمات الثقافية والاعتقادية حول هـذا الأمـر الإنسـاني العـالم/ المشترك. وقد نجح نجيب محفوظ في تضفير هذا التراث في شـخص متحرك له ظروف تعرض لمحن. عدة كوارث أدت به في النهاية إلـى تحدي الموت -هكذا ظن- والتمسك بالخلود بل تنفيذ طقوسـه وكانـت

---

(١) سيد عويس: "الخلود في حياة المصريين المعاصرين"، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٢- القاهرة.

النتيجة الموت وبطريقة بشعة "عارياً ووجه منغرز في حوض الدواب" وكأن محفوظ يسخر من هذا التحدي، فالموت لا يقاوم. ولكن نتسـاءل: لو لم يتعرض جلال لخيانة من قبل الغانيـة زينـات الشـقراء حيـث وضعت له السم في الشراب.. كيف كانت ستكون نهايته؟ وهل الاعتقاد الذي كان يتبناه بتحديه للموت كان سيجعله يتحدى الصـعاب؟ ويقـاوم الموت (بمعنى الجمود والكسل) هذا هو السؤال؟!

(١٤)
زينات الشقراء
والمومس حين تعشق

نموذج زينات الشقراء تكرر كثيراً في أعمال نجيب محفوظ.. نموذج البغي التي يعجب بها أحد الرجال فيقرر في لحظة جنونية/ عاقلة أن يقترن بها متحدياً كافة أصناف السخرية والاستهزاء من قبل الآخرين.

ورغم أن صورة البغي في أعمال نجيب محفوظ تحتاج إلى دراسة في حد ذاتها - إلا أن تكرر نموذج المرأة/ المنحرفة في ملحمة الحرافيش كثيرة نذكر منها فلة ربيبة البوظة والتي تزوجها عاشور الناجي، ثم زينات الشقراء والتي عشقت جلال ابن عبده الفران، ثم نور الصباح العجمي الراقصة الداعرة والتي اقترن بها شمس الدين الناجي، وحين اعترضت والدته بأنها "بنت داعرة". فقال شمس الدين بكآبة: مثل جدتي زينات، ثم متمتماً بسخرية: ما أكثر الداعرات في أسرتنا المجيدة (ص٤٦٠)، ثم أخلصت له. وقد اخترنا نموذج زينات الشقراء للدخول إلى سيكولوجية عالم البغي ويكف أنها إذا استأنست حباً فإن حياتها تتحول من النقيض إلى النقيض، من حياة الفجور إلى حياة التقوى والالتزام، وكان هذا ما كان.

ولنتابع مع نجيب محفوظ الحديث عن هذه الفتاة "امرأة من بنات الهوى، تقيم في شقة صغيرة فوق بنك الرهونات، يعشقها الوجهاء.. متوسطة التكوين، ريانة الجسد، جذابة الملامح. ولأنها تصبغ شعرها بلون الذهب دعيت بزينات الشقراء" (ص٤٠٩)، كانت بصورة روتينية تحب

الفتوة جلال.. لكنها بسيكولوجية المرأة المدربة/ الخبيـرة عرفـت أن جلال هذا يحبها، ولا يريدها كزبون.. يقضي معها عدة ساعات -إن لم يكن دقائق- ويمضي إلى حال سبيله، ولذا ادعت أنها تريد شقة عنده.. كما عرفنا من خلال سياق الحوار أنها قد جمعت العديد من المعلومات عنه "سمعت من أهل العلم أنك ما شربت في حياتك قرعة ولا دخنـت نفساً ولا مسست امرأة، هل هذا صحيح" (ص٤١١) ومن خلال الحوار الإنساني نكتشف مفهوم كل منهما عن السعادة، حيث يـرى جـلال أن مفهوم الموت يقوض السعادة، في حين أن زينات الشقراء ومن خـلال فلسفتها في الحياة ذكرت أن الحياة ليست إلا الحب والطرب، وما عـدا ذلك فإننا نتركه وراءنا للغير، وأن السعادة والطرب يختصان بالجسـد والروح ولا يرثهما أحد، والأهم أن تعيش اللحظة الراهنـة، وإننـي لا عشت يوماً بلا حب أو طرب وأن الموت لا يعينها إلا بالرغم من أنها تؤمن بأنه حق بيد أنها لا تحب سيرته أو أننا لا نملك إلا هذه السـاعة التي نحياها (ص٤١٠:٤١٢) هذه باختصار فلسفة زينـات المـومس.. وهي قد تعلمتها وخبرتها من خلال معاركتها لكافة أصـناف الرجـال، وأنها ترى أن اللذة لحظة هاربة يجب أن نقبض عليها بكل قوة حتـى تختلط بالجسد والروح، ثم أحبت بكل عنف جلال وأخلصت له.. وقـد ساعدتها الظروف الخارجية على ذلك إذ "أحبته زينات حباً ملك عليهـا نفسها، وداعبها حلم غريب أن تصبح حليلة (بـدلاً مـن وصـفها الآن خليلة) له ذات يوم (ص٤١٣) ثم انقطعـت عـن معاشـرة الرجـال الآخرين، وأدخلت إلى حياته أصنافاً من السعادة (على طريقة فلسفتها) مثل القرعة المذهبة وجوزة مدندشة، ورغم ذلك لم يفكر جلال جدياً في

أن يقترن بها لأنه -كما سبق أن ذكرنا- كان مشغولاً بالخلود ومقاومة الموت. ثم ظهرت بوادر حبها العظيم لجلال حين تلقت خبر اعتزالـه لمدة عام "كأنه ضربة قاتلة. قطيعة أليمة غير مسبوقة بتمهيد وبلا سبب مقنع. إنها المرارة والخوف واليأس. ألم يكونا كالزبـدة علـى العسـل حلاوة وامتزاجاً؟ وآمنت بأنها ملكته للأبد.. ها هو يغلق البـاب مثـل درويش التكية هاجراً أحبابه في الحيرة والعذاب. بكت في حيرة مماثلة. جالست أباه عبد ربه في جناحه.. وهو مثلها في حيرة من أمر ابنـه.. عانت زينات حياة معذبة. لم يكن المال ينقصها ولكنها فقدت تاج الحياة، تزعزعت ثقتها بنفسها، وتجهمها المستقبل الغامض (ص٤٢٥) إلا أنهـا كمحبة عاشقة ومخلصة لمن بادلها حباً بحب تحملت على نفسها، صار حبها يكبر وينمو مع الأيام. ولذا حين انتهى العام "اقتحمـت الحجـرة زينات الشقراء. طارت نحوه مجنونة بالأشواق محتضنة إياه في عناق حار طويل. انتحبت باكية. سألته بعتاب حار:

- ماذا فعلت؟ قبل خديها وشفتيها فعادت تتساءل:

- كيف هنت عليك؟ اجتاحه الحنين إليها. شيء ثمـين جميـل عـابر. يراها شابه جميلة وعجوزاً دميمة. كذبة عذبة. كأن الإخلاص أصـبح مستحيلاً. قال لها:

- لتنسي ما فات.

- ولكني أريد أن أعرف.

- كأنه مرض وأتاني.

- يا لك من خائن.

- يا لك من امرأة مليحة.

- أتدري ماذا حصل للدنيا؟

- فلنؤجل الحديث عن ذلك.

فتراجع رأسها وقالت بانبهار:

- ما أجمل منظرك!

فانقبض قلبه وتمتم وهو يرمقها برثاء:

- آسف على ما عانيت.

فقالت بعناد:

- سأسترد صحتي في ساعات.. ولكن مـا سـرك؟" (ص٤٢٨:٤٢٩)

وواضح من خلال الحوار مدى المعاناة التي عانتها زينات في عزلـة جلال إذ تغير منظرها.. وافترسها القلق.. وأحالها إلى عجوز تلهو بها التجاعيد والغضون. لقد أحبته بجنون.. حباً يصل إلى درجـة القتـل.. وهذا ما كان.. لقد أخلصت له (وهذه صفة تتناقض وطبيعة البغي) ثـم إذا به يتغير إذ أصبح يفرط في الطعام، ويستجيب لغـزل أي غانيـة.. "وسرعان ما تحرر من سطوة زينات فلم تعد إلا وردة جميلة في حديقة مليئة بالورود. وترامت أنباء مغامراته إلى المرأة فاشـتعل بجوانحهـا جنون الغيرة والخسران، ورأت وجهها في مرآة المستقبل متلاشياً فـي ظلمة النسيان والضياع" (ص٤٣٣) وكانت النتيجة أنهـا رغـم حبهـا العظيم له إلا أنها بكامل إرادتها قتلته بوضع السلم له في الخمر.. وقـد استشعر جلال خطأه في إهمالها فقال لها مواسياً:

"- ما زلت في أعز مكانة ولكنك امرأة طموحة.

فاندفعت قائلة:

- ما أنا إلا امرأة حزينة.

- تذكري نصائحك الغالية عن قصر الحياة.
- كان ذلك في زمان الحب.
- ها أنا أعمل بها فشكراً لك" (ص٤٣٦).

لكنها اكتشفت بعد موت جلال أنها انتقمت من نفسها، ورغم أن البعض كان يعرف دورها إلا أنهم لم يشيروا إليها.. لكن الأعجـب، وكرمـز على حبها الجنوني لجلال - أنها حين "اكتشفت عقب موت جلال بفترة من الزمن أنها حامل وأنها حبهما خالد، وملكها شعور بالفخار رغم أنها ثمرة غير مشروعة وأنجبت ذكراً فسمته جلال بكل جراءة وصـراحة متحدية التقاليد" (ص٤٤٢).

ورغم أنها أخلصت الذكرى، وحاولت قدر استطاعتها المحافظة علـى جلال (عبد ا) ومعايرة الآخرين له بـ "ابن حرام" معاناته من ذلـك أشد المعاناة، بل وحرصت على أن تزوج ابنها.. بالرغم من الـرفض الذي قوبل بحجة "امرأة مثلها كيف تعرف من يكون أباً لابنها بل وصل التحدي إلى درجة أن ذهبت إلى المعلم عبد ربه ثـم المعلـم راضـي ليتنازلا للصغير عن شيء من ماله ولكنهما قاطعاها بحدة.. ورغم ذلك آثرت حياة الفضيلة بل "ووهبت جيشان حب الأمومة، وحب العاشـقة الخالدة لأبيه الراحل.. آثرتها أمه على العودة إلـى حيـاة الغانيـات" (ص٤٤٢:٤٤٣). وماتت حين بلغت الثمانين ورغم أن جـلال الابـن حزن جداً لوفاة أمه إلا أنه صدم حين ماتت على الرغم من أن حياته قد تبدلت تماماً من النقيض إلى النقيض -تماماً مثلما فعلت أمه حين التقت بجلال.

ويطرح ما سبق قضية سيكولوجية البغي، وبالرغم من أن البغاء مـن الظواهر التي تدهش عالم الإنسان مهما كان تخصصه. فالإنسان علـى الرغم من رقية ما زال هو الحيوان الوحيد الذي يمارس بعض أفـراده البغاء. فالبغاء نشاط جنسي قديم قد الإنسانية نفسها لقي من نفور البشر على مر الزمن ما جعلهم يرون فيه أقصى أنـواع امتهـان البشـرية وأقصى إهدار لمنزلة الإنسان.. لكن كل ذلك لا يمنع مـن أن البغـاء موجود، كما أن تاريخه ضارب بجذوره منذ القدم، ومن العجب أنه كان يمارس في المعابد وسمي البغاء المقدس، حيث كانت تحتجز المراهقات في المعابد وكانت وظيفتهم الترفيه عن الكهنة من جانـب ومضـاجعة الحجاج من جانب آخر، وذلك نظير أجر يكون حقاً لخزانـة المعبـد، وكانت النظرة لهذه الخدمات محوطة بالاحترام البالغ للبغايا المقدسات، ثم مع التطور يستهجن هذا الفعل، بل وتسن القوانين وتشرع العقوبـات لمحاربته وتجريمه. والبغي والمومس تقيم علاقتها بالعميل (أو الزبون) على أساس عقد يتضمن شروطاً ضمنية متفقاً عليها وأول هذه الشروط:

١- حق العميل في المتعة الجنسية وحدها والالتزام بمطلب مباشر من جسدها دون تجاوز لهذا الجسد الفعلي.

٢- أن من حق البغي أن تقيم علاقة مع أي عميل وهذا يتطلـب مـن العميل ضرورة الاعتقاد بأن منح الجنس له ولغيره وهو حق من حقوق البغي لا يناقش.

٣- أن فترة العلاقة تكون محددة بقيمة مالية معينة علـى العميـل أن يلتزم بها أي مقايضة الجنس بالمال.

٤- أن عملية الجنس في العلاقة مع البغي هي من حق العميل وليس من حقها بمعنى أنه إذا كانت العلاقة الجنسية في الزواج علاقة متبادلة فإنه في حالة البغي علاقة من طرف واحد (حيث تكون سلبية/ باردة الإحساس غير مشاركة) وعلى العميل أن يكتفي بإشباع رغبته الجنسية، وليس من حقه أن يطالبها بأن تشبع معه رغباتها لأن ذلك يتعارض وقانون المهنة.

٥- أن البغي في الغالب تعمل تحت سطوة قوادة أو قواد، ولذلك فإنها تتحول إلى سلعة تباع وتشترى.. هذه السلعة لها زبون (العميل) ووسيط أو بائع (القواد) باختصار فإن البغي حريصة على أن تعطل أي نشاط وجداني في علاقة العميل بها، بحيث يبقى محور العلاقة البغائية مقتصراً فقد على الشق الشهوي من الرغبة الجنسية للعميل وحده.. أي أنها علاقة غير مكتملة.. وهذا شيء منطقي ومفيد سيكولوجياً للبغي لأنها لا تستطيع أن تحب أو تختار أو ترفض أي زبون يدفع مقابل أن يشبع شهوته الجنسية، ولذا فإنها تمارس من خلال جزئ محدد من جسدها -علاقة جنسية وهمية، ذلك لأن جسدها إنما هو أداة متعة للآخر، وليس جسدها يدخلها في علاقة اغترابية عن جسدها.

وجسدها جزء من ذاتها - مما يدخلها في علاقة اضطرابية، لأن جسدها سيكون عرضة لكافة أنواع القسوة والممارسات غير الإنسانية من جهة العميل [1]. لكن البغي حين تحب، أو تجد المناخ المناسب لاسترداد إنسانيتها فإنها تبدأ في استعادة العلاقة المفقودة مع نفسها..

---

(١) أحمد فائق: "الأمراض النفسية والاجتماعية، دراسة في اضطراب علاقة الفرد بالمجتمع"، دار أتون للطباعة والنشر، ١٩٨٢، الفصل ١١ من (ص٣٣٨:٣٤١) (البغاء وسيكولوجية الجنس).

إنها تعرف معنى الإخلاص، واقتصار العلاقة على رجل واحد تحبـه ويبادلها الحب بل ويتسامح معها وينسى ماضيها الشائن، رجل يحميهـا لا قواد يستغلها.. ولعل هذه المقولة قد عزف عليها نجيب محفوظ بـل وصورها في العديد من الروايات.. صورة المومس الفاضلة حين تجـد الرجل الذي يتسامح معها.. ويحولها إلى ست بيت.. صور ذلـك فـي الثلاثية.. بداية ونهاية.. زقاق المدق.. وأخيراً في ملحمـة الحـرافيش خلال شخصيات متعددة. ولكن الجديد في الشخصية هـو مـدى حـب زينات البغي لجلال.. وكيف أنها تحدت التقاليد وحافظت علـى ثمـرة الحب حتى وجدته رجلاً يدب في الحياة وأمام عينيها محاولـة قـدرة طاقتها أن تسعد بهذا الحب (أو الذكرى) التي أسعدتها يوماً ما.

(١٥)
شخصية فائز/ ربيع الناجي
وسيكولوجية المقامرة والانتحار

ظروف أسرية قاسية، وأب انخرط في الحياة والزواج تحـت ضـغط المال بعد أن بلغ الستين أو بعد أن تقدم للكثيرات ورفـض طلبـه لأن الفقر لم يستر أصله، وحين أراد أن يراود خادمته عن نفسها وأنذرتـه بأنها سترحل بلا عودة حتى استشف أيام الوحدة. فوافق على الاقتـران بها وجاء فائز وأخواه ومات الأب ولم يترك لهما سوى الشقاء والضياع وسلسلة لا تنتهي عن الأسرة من المخازي والجنون والدعارة، لكن الأم

واجهت الحياة بلا تردد وبابتسامة ورضيت بقدرها، ورغم ذلك جعلت أولادها الثلاثة يدخلون الكتاب.

لكن مصاعب الحياة كانت قاسية ولها الكلمة العليا. فاضطر فائز أن يواجه الحياة وكان انطباعه أن الحياة "معادية ومعاندة" وأنه يؤخذ فيها على جرائم أجداد وجدات لم يعرفهم وكان يزداد في السخرية ويكبت مشاعره ويمضي في عمله (ص١١٥).

وخلال هذه الرحلة القصيرة الحافلة تلقى نوعين من المعلومات:

(أ) معلومات أمه وحكاياتها عن أجداده والزاوية والسبيل (معلومات تدعو إلى الفخر والاعتزاز).

(ب) معلومات من الوسط الخارجي من معايرته، وأنه مجرد سلسلة من جرائم الأسرة العريقة سواء أكانت عربدة أو هروباً أو جنوناً أم شذوذاً.

ولقد أصابته هذه المعلومات المتناقضة بالسخط وجعلته متبرماً ضائقاً بالحياة ورغم أن أمه حاولت أن تزرع فيه الجانب الخير على أساس أن جده عاشور كان ولياً إلا أنه قال لها بحدة: "مضى زمن المعجزات أما الدور فيه في قبضة الآخرين" فقالت الأم بحرارة:

- من الحرام جاءت ومن سبيل الحرام هلكت.

فهتف بتذمر كالمحتج:

- الحرام!

- اقنع بنصيبك. ماذا تريد؟

- ما أنا إلا خادم حمار وما أنت إلا خادمة أوغاد.

فقالت باعتزاز:

- نحن نعمل ونحن شرفاء.

فقهقه.
وكان قد طاف بالبوظة قبل رجوعه وشرب قرعتين" (ص٥١١:٥١٢).
ويكشف هذا الحوار الذكي الحاد عن سر التحولات في حياة فائز ربيع الناجي. لقد سخط على الواقع، وأراد القفـز عليـه، وعـدم الامتثـال لقوانينه، أراد الطيران. فالحرام هو الذي يدوم، وهو الذي يجعل السلطة تدين لك، ويجعلك مخيفاً وذا نفوذ عند الآخرين. ثم تتكشف الأحـداث بعد ذلك عن هروبه من الحارة، واختفاء الحمار وعربة الكارو والتـي كان يعمل عليها مما وضع أمه وأخويه في موقف لا يحسدان عليه وقد صدقت نبوءته إذ عاد يوماً إلى الحارة وقدم الولاء إلى الفتوة، وجعـل أمه ترفل في النعيم وأخويه يبتعدان من حياة التسـول والكـدح.. ثـم يفارقهما وهو يقول لهما إنه يعمل سمساراً.. حتى عاد وبعد قليل وجـد منتحراً.. وبعد التحقيقات تتكشف الحقائق المفزعـة "أنـه فـائز بـدأ مغامراته ببيع الكارو، أنه استثمر ماله في: الدعارة والقمار والبرمجـة (المتاجرة بأي شيء) والمخدرات. وكان يقامر بثروات خياليـة وفـي حالة الخسران كان يستدرج الغريم مستعيناً بالنساء والمخدرات فيقتلـه ويستولي على النقود ثم يواريه في فناء داره. وفي آخر مقامرة خسـر أمواله جميعاً ثم اضطر إلى المقامرة بأملاكه بشكل عقد بيع صـوري فخسر أيضاً ولم يتمكن من قتل غريمه الذي فر بروحه ومالـه، ولمـا خسر كل شيء وأصبح سره مهددا بالانفضاح انتحر (ص٥٣٨) ولعـل كل ما سبق يطرح قضية: لماذا يقامر الإنسان أولاً؟ ولعـل الإنسـان المقامر إنسان يعشق ويتوقع أن الثراء أو اللذة تأتي كنتاج من أحـداث

عشوائية وهو على استعداد أحياناً أن يخاطر بأمواله وحتى بحياته مـن أجل أن يتوقع شيئاً وأن يكون توقعه صحيحاً.

ولعل المخاطرة تمثل احتياجاً نفسياً لدى المقامر لأنه:

١- يخاطر حتى يثبت لنفسه أنه قادر على سبر أغوار المجهول، قادر على توقع نتائج صحيحة من خلال أحداث عشوائية.

٢- يخاطر من أجل كسر جبال الملل الجاثم فوق نفسه، والإثارة تـأتي من محاولة التوقع رغم عشوائية الموقف.

٣- يخاطر لكي يذيب الاكتئاب المسيطر على نفسه. فالاكتئاب مـوت وركود. الاكتئاب كثلاجة الموتى تحتوي الإنسان وهي حي ولا سـبيل للهروب منها إلا بلحظات إثارة تكون كالنار التي تتراجع أمامها الثلوج.

٤- يخاطر حتى يهرب من إحساسه بالندم والحسرة والإثم من هنا فإن القمار ليس مرضاً وإنما هو عرض.. قـد يكـون عرضـاً لمـرض الاكتئاب.. محاولة لبعث الحرارة.. محاولة لإثارة عاصفة.. المقـامرة بالنقود وليس من أجل النقود.. ولابد من الخسارة لأنها بديل الانتحـار ولا علاج إلا بعلاج الاكتئاب تماماً.. حيث الفرحة العارمـة الزائفـة والنشاط والحماس والاندفاع والانفصـال عـن الواقـع وعـدم إدراك العواقب.. مريض الهوس قد يبعثر نقوده في الشارع بلا وعي وأيضـاً يبعثرها بلا وعي على مائدة القمار.

وقد يغرق الإنسان نفسه على مائدة القمـار للهـروب مـن الضـغوط والمشاكل التي تحاصره.. ضغوط من كل جانب ومشاكل بلا حلـول, والقمار قد يكون رغبة قهرية.. شيئاً يشبه مرض الوسـواس القهـري حين تسيطر على الإنسان فكـرة أو رغبـة اندفاعيـة لا يسـتطيع أن

يقاومها.. رغبة إلى اللعب مع خوف من أن يفقد السـيطرة.. ويظـل يلعب حتى يفقد ماله أو يتعرض للسجن, وهنا تزيد الرغبة العارمة. وقد يلعب على زوجته (كرهان) أو على منزله وهنا تكون الخسارة فادحة.

كما أن القمار قد يكون أحد دوافع أو أسباب اللجوء إليـه أنـه وسـيلة لعقاب الذات.. الإحساس بالذنب، والرغبة فـي الـتخلص مـن هـذا الإحساس بالذنب المسيطر، بالرغم من عدم وجود أعـراض اكتئابيـة واضحة.

وقد يكون اللجوء إلى القمار فترة عابرة وحب استطلاع تمـت تحـت تأثير الأصدقاء. وقد يستمر أو لا يستمر [1].

وفي كل الأحوال فإن المقامرة هي سلوك عرضي يشير إلى معاناة هذا الإنسان (المقامر) من مرض ما.. وقد يكون العلاج يتطلب فقط وضـع المقامر (هذا) تحت مظلة الحب الصادق الحنون من قبل الآخرين. ذلك لأن الإحساس بعد القيمة، وفقدان الاحترام من قبل الآخرين، والعجـز عن التواصل الإنساني الصادق معهم مؤشر إلى المعاناة، ومن ثم يلجـأ هذا الشخص إلى العديد من ضروب الزيغ والانحراف حتى يعثر على ذاته المفقودة وقد لا يجد ذاته المفقودة تلك إلا بالإصرار والاندفاع نحو فقدان الذات وهنا يدخل في نطاق الانتحار أو محاولة الانتحار.

وقد وجدت دراسة مصرية أجريت على محاولي الانتحار إذ نبهت إلى زيادة النسبة في مصر والعالم العربي، أما عـن سـيكولوجية هـؤلاء المحاولين للانتحار من الناحية الدينامية فقد كشفت عن السمات التالية:

---

(١) عادل صادق: حكايات نفسية - الجزء الثاني، كتاب اليوم الطبـي، ديسـمبر ١٩٨٤، (ص٦٩:٧٨) - القاهرة.

صورة الذات: اتسمت الذات لدى المبحوث بالعجز والطفلية في مواجهة المشاكل مع غلبة مشاعر الحزن عليها.

كفاءة الأنا: اتضح أن الأنا لدى المبحوث عاجزة، وأنه يعجز عن حـل المشكلات ومواجهتها بطريقة إيجابية مع الهروب والسـلبية، وغلبـة الشائعات الطفلية.

الصراع وطبيعة القلق: تمثل القلق فـي الشـعور بـالعجز والدونيـة وصراعات تعود إلى مرحلة الطفولة.

الدفاعات: وجد أن محاول الانتحار يستخدمون عدداً من وسائل الـدفاع مثل الإسقاط والتبرير والتفعيل والإنكار والتوحد.

الأنا الأعلى: "أو الضمير" ضعيف، ويتسم الشخص بالتشتت (الذهني)، والغياب في أحيان كثيرة عن المنزل، وعدم الالتزام بمعايير وقواعـد المجتمع والسلطة.

- كما أنه يرفض النموذج الأبوي، ويتوحد بالنموذج المغلـوب علـى أمره إضافة إلى الاكتئاب والإحساس بالعزلة، واضطهاد الآخرين لـه، لذا يلجأ إلى الانتقام من الآخرين [(١)].

وإذا كان كل ما سبق من سمات سبر أغوار محاولي الانتحار فإن مـا سبق يصدق على المنتحرين، لأن فئة "محاولي" أنقذوا لسبب أو لآخر، مما يجعلنا نرجح أن كل ما سبق من سمات ينطبق علـى المنتحـرين، وإذا كان هناك فروق من فرد إلى آخر فإنها تأخذ صورة كمية وليست كيفية.

---

(١) سامي عبد القوي علي: "دراسة في سيكولوجية محاولة الانتحار"، رسالة دكتوراه غير منشـورة، آداب عين شمس، ١٩٨٩ - القاهرة.

وعموماً فإن الدراسات التي تناولت كافة العوامل المحيطة بـالمنتحرين قد كشفت عن أن الانتحار:

١- أكثر تواتراً بين الرجال عما هو بين النساء.

٢- أكثر تواتراً عند الرجال وخاصة في سن متأخرة.

٣- أكثر نسبة بين المتزوجين وأقل بين المطلقين.

٤- لم تؤثر نسبة الثراء في نسبة الانتحار ولكن التغيـر الاقتصـادي السريع كان له أثره.

٥- يقل حيث تكون الرابطة الدينية قوية والبنيان الاجتماعي قوياً[١].

ألا يؤكد ما سبق التفسير الذي قدمناه في بداية هـذا الفصـل مـن أن الضغوط والظروف والكلام المتناقض بين ما يسـمعه الإنسـان ومـا يراه.. كل ذلك جعله يقفز فوق الواقع.. ولكنه كان أسرع إلى المـوت باختياره وبإرادته.

(١٦)

شخصية الحرافيش

مدخل إلى سيكولوجية المقهورين

ظل الحرافيش كقوة طوال الملحمة خالية من المعنـى والدلالـة فقـط يعلقون على الأحداث، ويتواءمون بسرعة مع ما يستجد من أمور، فإذا كان الفتوة عادلاً أيدوه ودعوا له وأحاطوه بكل حب وتقدير، وإذا كـان العكس تواروا ووضعوا كل اهتمامهم في العمل والسخرة حتى ينجـوا

---

(١) سعد جلال: مرجع سابق، فصل الانتحار.

من البطش، وإذا أصاب الفتوة الشرس أي مصـيبة هللـوا مكبـرين، مرجعين تلك الأحداث والمآسي إلى الانتقام الذي حل به نتيجة خيانتـه لعهد عاشور الناجي/ العادل العظيم. لكن الحرافيش كقوة مسيطرة يحب لها الفتوة ألف حساب قد ذكر في موقعين:
الأول: حين تحكم سماحة شمس الدين في الأسعار، وشـحت البضـائع وكان يقوم "يفتح الباب - بتوزيع البضائع عليهم ليلاً.. قائلاً لهم: إنهـا من عاشور الناجي. لكن افتضح أمره، وكاد أن يعلق ويصفى دمه حتى هب الحرافيش وانتقموا من الفتوة وأعوانه إذ تسلل كـل جمالـه إلـى مسكن رجل من رجال العصابة تم ذلك قبيل الفجر.. هوجم الرجال في أسرتهم دهمتهم الكثرة، غلبوا على أمرهم، انهزموا، نهبت الدور، زالت عنهم غشاوة السحر مخلفة وراءها عاهات مسـتديمة.. وخرجـوا دور العصابة كالسيل، غمروا الحارة، اقتحموا المخازن، نهبوا كل مخـزن بها، دمروها تدميراً وأول هدف لهم كان مخزن سماحة الفتوة..
بل لم يترك قائم في المحل كله تم نهب الغـلال حتـى آخـر حبـة.. سيطروا على الحارة تماماً حتى شعشع أول ضوء للنهار (ص٥٠١).
ولذا فإن ثورة الحرافيش تلك لم تمح من ذاكرة الفتوات (ص٥٢٦).
الثاني: وهو لقاء عاشور ربيع الناجي مع الحرافيش المطـرودين فـي ساحة الدراسة ودار بينهم حوار عن كيف تعود إلـى عهـدها السـعيد وحين استشرى الظلم وإذا بمفاجأة الحارة كزلزال، مفاجأة لم يتوقعهـا أحد، تدفق الحرافيش من الخرائب والأزقة هائمين، ملوحين بما صادفته أيديهم من طوب أو أخشاب ومقاعد وعصى تدفقوا كسيل عـارم إلـى رجال السبع (الفتوة) الذي أُخذوا بسرعة انقلبوا من الهجوم إلى الدفاع..

أحاط الحرافيش بالعصابة, انهالوا عليهم ضرباً بالعصي والطوب فكان السعيد من هرب، وفيما دون الساعة لم يبق فـي الحـارة إلا عاشـور والحرافيش (ص٥٥٨) هذان هما الموقفان اللذان أبرزهما محفوظ طوال الحرافيش عن دورهما المؤثر - وليس السـلبي/ الخـانع/المتلقـي - الإيجابي في مجريات الأمور.

ويطرح ما سبق قضية: مدى احتياج الحرافيش إلـى فتـوة عـادل أو بمعنى آخر: أهمية السلطة (القوية العادلة) في حياة الحرافيش؟ وما هو المدخل النفسي لكي يتم سبر أغوار هؤلاء الحرافيش وما يميزهم مـن سمات أخرى مختلفة؟

والإنسان المسحوق أو المقهور هو أولاً إنسان يعيش فـي عـالم مـن العنف المفروض، عنف يأتي من الطبيعة وغوائلها والتي لا يستطيع لها ردعاً والتي تشكل تهديداً لقوته وأمنه وصحته.. وهكذا فإن عدم وجـود ضمان أكيد من عدم غدر الطبيعة يجعله يؤمن بالماورائيات، ومن هنـا فقد وجد أن الإنسان المقهور لديه ميل إلى أنسنة الطبيعة إذ يصـورها على غرار الأم الرءوم المعطاء تارة، وعلـى صـورة الأب القاسـي العنيف الذي ينزل أشد العقاب بأبنائه، ومن هنا نجده يميل نفسـياً إلـى الإيمان بالقدرية والامتثال وكلها محاولات سحرية لإدخال بعض التنظيم على هذا المعتقد بغية السيطرة على الطبيعة أو الاستكانة لهـا ولعـل العديد من الأمثال الشعبية يؤكد ذلك "المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين" "اجري يا ابن آدم جري الوحوش، غير رزقك لن تحوش" "العبد في التفكير والرب في التدبير" أو "إيه تعمل الماشطة في الوش العكر".. الخ الأمثال الشعبية القدرية.

ولا يقف الإنسان مقهوراً فقط أمام الطبيعة بل قد يوجـد نـوع آخـر ونقصد به قهر الإنسان المختلف لقهر السيد المالك للسلطة أو النفوذ أو القوة أو المال، وهنا فإن قهر السيد يجعـل الإنسـان المقهـور يفقـد سيطرته، وأصبح لا حق له ولا مكانة، ولا قيمة، إلا ما شاء الطـرف المتسلط أن يتكرم به عليه ومن هنا لا يجد الإنسان المقهور هذا وسيلة بالتكيف إلا بالخضوع والتبعية، والوقوع في الدونية كقـدر لا مهـرب منه، وبدلاً من علاقة الأنا - أنت التي تضمن المسـاواة والاعتـراف المتبادل بإنسانية الآخر وحقه في الوجود، ذاك الاعتراف الذي يشـكل شرط حصولنا على إنسانيتنا من خلال اعتـراف الآخـر بنـا كقيمـة إنسانية، بدلاً من هذه العلاقة تقوم علاقة من نوع: أنا - ذاك. ذاك هـو الشيء الكائن الذي لا اعتراف به ولا بإنسانيته.. ذلـك هـو الإنسـان المغبون - المسحوق - المقهور - المختلف ومن هنا لا بـد أن يقـيم السيد الدليل على سيطرته، فيقوم بالعنف والمبالغة فيه تجاه هذا المقهور حتى يضمن عدم تمرده وحتى تتضخم أنا السيد، بالرغم من أن كلاً من الطرفين لا ينعمان بالأمن ولا بالسلام النفسي، لأن السيد في حاجة إلى عنف متطرف موجه إلى المقهور حتى يضمن ولاءه، وفي نفس الوقت يخشى على نفسه والعلاقة كما وصفها هيجال علاقـة السـيد بالعبـد والطبيعة الجدلية بينهما.

كما أن الإنسان المقهور يعاني من عقدة النقص، وهذا الخوف يجعلـه يخاف من السلطة، من قوى الطبيعة، من فقدان القدرة على المجابهـة، من شرور الآخرين.. باختصار يضحى الخوف مسيطراً على حياتـه، ومن ثم يفتقد إلى انعدام الأمن، ويأنس إلى المألوف "اللي نعرفه أحسن

من اللي ما نعرفوش" و"اصبر على جارك السو يـا يرحـل أو تجيلـه مصيبة".

ويتفاعل مع هذه العقد عقدة العار ذلك لأن الإنسان المقهور/ المسحوق يخجل من ذاته، يعيش وضعه كعار وجودي يصعب احتماله. إنه فـي حالة دفاع دائم ضد افتضاح أمره، افتضاح عجـزه وبؤسـه. ولـذلك فالسترة (أو الستر) هي أحد هواجسه الأساسية. إنه الكـائن المعـرض ويخشى أن ينكشف باستمرار يخشى ألا يقوى على الصمود. يتمسـك بشدة بالمظاهر التي تشكل ستراً واقياً لبؤسه الداخلي. هاجس الفضيحة يخيم عليه (فضيحة العجز أو الفقر أو الشرف أو المرض). حساسـية مفرطة جداً لكل ما يهدر المظهر الخارجي الذي يحاول أن يقدم نفسـه من خلاله للآخرين إضافة إلى ملمح آخر يتمثل في اضطراب الديمومة ذلك لأن عجز الإنسان المتخلف عن التحكم بمصيره مرتبط باضطراب الديمومة وأن الماضي والحاضر والمستقبل لا تشكل منظومة محددة بل نجده يميل إلى تضخيم الماضي، ويعاني من تأزم في معاناة الحاضـر، ورغبة في هتك آفاق المستقبل، والعجز أمام التسلط وما يستتبعه مـن عقدة نقص وانعدام الشعور بالأمن.

وهنا نجد أن مواجهة أي موقف جديد تكـون لـيس بـالهروب وإنمـا باجترار المأساة، ومن هنا نفهم لماذا يسود طابع الحزن -حتـى علـى المستوى القومي- فالإنسان المسحوق يتميز ببناء انفعالي سادي/ حزين وإن طابق الحزن يخيم على كل شـيء تقريبـاً ويـدخل -وبصـورة واضحة- في الأغاني الشعبية والتي هي أقرب -في معظمهـا- إلـى المرثيات، كما أننا نجد أن الإنسان المقهور حين يضحك ويتمادى فـي

الضحك نجده يقول من تلقاء نفسه "خير اللهم اجعله خير" أي من كثـر الأحزان وغرقه فيها ينتابه شعور بالندم والإحساس بالذنب على هروبه القليل إلى طرف الضحك والسعادة وتتفاعل كل تلك العوامـل لتجعـل الإنسان المقهور يشعر بالاضطهاد ومن هنا فإن يلجأ أما إلى نفسه لكي يصب عليها جام غضبه أو يحتاج ذلك من الآخرين.. وهكـذا لا يجـد أمامه إلا الآخرين حتى يحملهم مسئولية ذنبه، لأن العدوان فـي هـذه الحالة يهدد وجوده بالانتحار.. ولكن قد تأتي مرحلة التمرد والمجابهـة وهكذا حيث تنقلب الأمور فالرجل الذي قيل إنه لا يفهـم سـوى لغـة القسوة والسب قد يعبر عن نفسه بنفس هذه اللغة (التوحد بالمعتـدي)، وإن العنف المسلح هو السبيل الوحيد ليتخلص من الشعب المقهور مـن عقد النقص، والجبن والخوف بشرط أن يتخلص من سـمات: الكسـل، والخبل، والاتكال، وكافة المظاهر السلبية، ومضى يتخلص من الخوف من عقدة المواجهة أو حتى الخوف من الموت ونحو قيمة جديدة.. قيمة أكثر إنسانية.. لكن لكل مرحلة من هذه المراحل مرجعيـة وثوابـت لا يجب أن نبخسها الحق من الرعايـة والاهتمـام. ذلـك، لأن الإنسـان المسحوق الذي حمل السلاح دون ثقافة كافية قد يقلب الأمر ويتحول من منقذ إلى مستبد، فيعترف بذهنه المتسلط القديم، يبطش، يتعالى، يتعسف، يزدري، وتبدو الأمور أكثر قرباً إلى الكوميديا حين يظل نفس الديكور على المسرح مع تغير الأبطال والأشخاص [1].

---

(١) مصطفى حجازي: "التخلف الاجتماعي - مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهـور"، معهـد الإنمـاء العربي، ١٩٧٦ - بيروت.

وكم عبر نجيب محفوظ عن هذه المعاني مـن خـلال هـذه الملحمـة الإنسانية والتي ضمت بين جوانبها العديـد مـن المـواعظ والحكمـة والتاريخ. ولكن هل يتعلم الإنسان ويتعظ أم يكرر -وربمـا بصـورة قهرية- ويعيد نفس الأخطاء والمهالك وحـين ذاك يصـبح الإنسـان إنساناً؟!

مصائر الأشخاص في ملحمة الحرافيش
المعنى و الدلالة

مدخل:

لعل من بين المبادئ الأساسية للتحليل النفسي مبدأ الحتمية، والذي يعني أن كل شيء محتوم المعنى والدلالة، وهو بذلك لا يشذ عما يلتـزم بـه العلم. وأن عدم الفهم لهذا الحتم إنما يعـود إلـى أسـباب داخليـة ولا شعورية ناتجة عن المقاومة [1].

والكائن الإنساني يخضع منذ الإخصاب وحتى الموت إلى العديـد مـن التغيرات المستمرة، فهو ليس أبداً في حالة ساكنة استاتيكية، بل ينمـو من خلال مراحل متعاقبة، هذا النمو يشمل كيانه ككـل مركـب مـن النواحي الجسـمية - التشـريحية والعقليـة والمعرفيـة، والانفعاليـة والاجتماعية، بما يحدد الخصائص التي تميزه كشخصية متفـردة، ولا تقف التغيرات عند حد معين، ولكنها تستمر، وإن كـان بمعـدل أقـل

(١) فرج أحمد فرج: "التحليل النفسي"، سعيد رأفت، ١٩٧٨ (ص٥).

سرعة مما تتدهور التدهور الذي يخبره الكيان الإنساني فـي حـالات الشيخوخة، وهكذا يكون النمو عملية مستمرة، تبدأ حتى قبل الميلاد [٢].

ولو تأملنا أين يبدأ عمر الإنسان، أي ما هي نقطة الصفر فـي حياتـه لوجدنا صعوبة في تحديدها، حيث إن لحظة التحام خليتي الذكر والأنثى في رحم الأم يعتبر هو نقطة تحديد ميلاد كيان جديد إلا أنه مع ذلك لا يعتبر نقطة بداية مطلقة من لا شيء ولكن سبقتها حصيلة خبـرة آلاف القرون من تطور الحياة تلخصت في أجنة الخليتين اللتين التحمتا لتكونا بداية الجنين[١].

وتوجد العديد من النظريات التي قدمت عن النمـو ومراحلـه وكافـة التغيرات التي تحدث في كل مرحلة. إلا أن الباحث يـرى أن نظريـة إريكسون Erikson في هذا الصدد أفضل النظريات، إذ قسم مراحـل عمر الإنسان إلى ثماني مراحل تبدأ من مرحلة الثقة والأمان في مقابل الشك وتنتهي بالمرحلة الثامنة والتي تعني التكامل حيـث تعـد هـذه المرحلة الأخيرة في حياة الإنسان، وقد عاش حياته كاملة وواجه جميع التحديات، وأتم كل الإنجازات بأفضل ما يستطيع، ولأنه عبر عن كـل ما في نفسه من رغبات وأشبع كل ما لديه مـن احتياجـات ومـارس الشيء ونقيضه فأطاع وعصى وطمع في الجزاء وخاف من العقاب لم يعد لديه من بقايا الصراع إلا القليل ولم يعد عنده من الرغبة المضـادة

---

(٢) فيولا فارس الببلاوي: "مذكرات في علم نفس النمو"، جامعة بنها، كلية التربية غير مبين سنة النشـر، (ص٣:٨٥).

(١) محمد شعلان: "الاضطرابات النفسية في الأطفال"، ط، ١٩٧٧، (ص٤٨:٤٩)، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية.

ما يحتاج إلى إشباع أو تحكم وحرمان، فقد اقترب من حالـة السـكون التام أو النيرفانا أو السكينة التي تصل إلى ذروتها فـي المـوت، ولا عجب أن نجد تشابها في نهاية الحياة وبدايتها، حيـث خلـق الإنسـان ضعيفاً، ثم يتحول الضعف إلى القوة، ثم تتحول القوة إلى ضعف فـي جدلية ديالكتيكية [٢] كما أن لكل شيء نهايته في الحياة، فالحيـاة تبـدأ بخلية واحدة وتنتهي بموت الشخص، كما أن مواجهة الموت -خاصـة في المراحل الأخيرة من العمر- تعد شيئاً أساسياً، حيث يقضى كبـار السن فترات طويلة يفكرون في الموت بالمقارنة بصغار السـن، بـل ويتقبلون حتمية الموت بدون غضب، علماً بأن الخـوف مـن المـوت يتعلق بشيء آخر غير العمر وهو المعتقدات الدينيـة، كمـا أن تقبـل الموت والاستسلام له يمر بالعديد من المراحل والتي ذكرتهـا العالمـة النفسية (إليزابيث كبلرروث) وهي مراحـل: الإنكـار - الغضـب - الصفقة - الاكتئاب - الاستسلام، علماً بأنه ليس من الضروري أن يمر الشخص بكل هذه المراحل [١] وإذا كان نهاية كل شخص -أو أي كائن حي- الموت، فقد احتل مفهوم الموت اهتمام العديد من العلماء الـنفس. إذ يرى -مثلاً- فرويد أن الحياة كفاح بين غريزة الحياة Eros (الليبيدو Libido) ودافعها الحب والجنس والتي تعمل من أجل الحفـاظ علـى الفرد وبين غريزة المـوت Thanatos ودافعهـا العـدوان والتـدمير والانتحار، وهي غريزة تحاب دائماً من أجل تـدمير الـذات، وتقـوم

---

(٢) E. Erikson: Childhood and society Norton, New York. 1963 -

(١) محمد سمير عبد الفتاح: "علم نفس النمو"، ١٩٩٧، (ص١١٦:١١٩)، الناشر المؤلف.

بتوجيه العدوان نحو موضوع خارجي فسوف يرتد إلى الكائن الإنساني نفسه بتدمير حياته [٢].

أي أن غريزة العدوان وجدت في الأساس لتدمير الذات، وقد اتجهـت إلى الخارج نحو موضوعات بديلة، فالشخص يقاتل الآخرين وينزع إلى التدمير لأن رغبته في الموت قد عاقتها قوى غرائز الحياة بالإضـافة إلى عقاب آخر في شخصيته يتصدى لغرائز الموت ولكن الموت فـي النهاية يحسم الموقف لصالحه [٣].

علماً بأن فرويد يعتبر الموت غريزة أساسية وله في ذلك نظرية[٤].

وإذا كان الموت -أو النهاية- يعد حقيقة لا جدال فيها لذا فقـد حفلـت الحياة الثقافية والاجتماعية بالعديد من الأمثال عن الموت (آخر الحيـاة الموت)، وأن الآجال محددة (ابن يومين ما يعيش لثلاثة)، والموت قدر (اللي ما يموت اليوم يموت بكرة)، كما أن القوة والحيـاة والسـلطة لا يجب أن تغر الإنسان ببقائه في الحياة (عاشر عاشر مسيرك تفـارق)، كما أن الموت حقيقة يجب أن لا تغيب أبداً عن بالنا (من عرف مبتـداه

---

(٢) P: 184

(٣) انظر:

(أ) سيجموند فرويد: "معالم التحليل النفسي"، ترجمة محمـد عثمـان نجـاتي، ط٧، دار الشـروق، (ص٤٩:٥٤).

(ب) دانيل لاجاس: "المجمل في التحليل النفسي" ترجمة: مصطفى زيور، وعبـد السـلام النقـاش، مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٩ (ص٤٣:٥٥).

(٤) خليل قطب أبو قورة: "سيكولوجية العدوان"، الهيئة العامة لقصور الثقافة، العدد ٤١، (ص١٠١)، عام ١٩٩٦ - القاهرة.

هان عليه منتهاه) [1] وإذا كان الموت كذلك -أي نهاية كل كائن حـي- فإن حياة الإنسان-أو الكائن الحي- قد تنتهي بطرق أخرى غير الموت. وبما أن الأدب هو انعكاس لثقافة الأديب ومدى وعيه بما يدور داخـل المجتمع، وأيضاً مدى وعي الأديب بالقضايا الإنسـانية، إضـافة إلـى انعكاس بنائه النفسي على عمله.. كل ما سبق يجعلنا نـدرس حقيقـة ودلالة نهاية الأشخاص في ملحمة الحرافيش [1].

تحديد المفاهيم: سوف نستخدم في دراستنا المفاهيم التالية:

١- الاختفاء:

هو انقطاع الشخص عن المكان والأشخاص الذين كان يتفاعل معهـم.. انقطاعاً قد يكون مستمراً أو (منقطعاً) وقد يكون لأسباب متعددة، وقـد يترك فراغاً في نفوس الأشخاص الذي كان يتعامل معهم، أو قد يكـون هذا الاختفاء ذا تأثير ضعيف أو غير محسوس.

٢- القتل:

القتل في القانون هو: "القصاص باليد، أي تطبيق قانون العين بـالعين، والسن بالسن، فلا يترك للسلطة العامة أن تمارسه أو لا تمارسه، وإنما يتمسك المجني عليه أو أقاربه، أو قومه بإنفاذه بأيديهم" [1].

---

(١) سيد عويس: "أمثال وتعبيـرات شـعبية مصـرية"، كتـاب اليـوم، العـدد ٣١٦، ديسـمبر ١٩٩٠، (ص١١٤:١١٦) - القاهرة.

(١) نجيب محفوظ: "ملحمة الحرافيش"، ط٤، دار مصر للطباعة - ١٩٨٥.

(١) أحمد محمد خليفة: "مقدمة في دراسة السلوك الإجرامي"، ط، دار المعارف، ١٩٦٢، (ص٨٠).

والقتل في علم النفس هو "عدوان على الآخر"، عدوان علـى كينونـة الآخر دون أن يكون بالضرورة عدواناً على القيم الإنسانية المشـتركة مما يتضح في جرائم الثأر والشرف [٢].

والتعريف الإجرامي للقتل هو: شخص أزهق روح الآخر أو الآخـرين بهدف تحقيق مصلحة جماعية (الثأر والشرف) أو لتحقيق رغبة فرديـة وبصورة عمدية. وقد يقبض عليه ويودع السجن، أو قد لا يـتم ذلـك لأسباب متعددة [٣].

٣- الموت:

ليس من السهولة بمكان تقديم تعريف محدد لمفهوم الموت لأنه مـرتبط بمفهوم الحياة، كما أن النظرة للموت عند المتدين تختلف عن غيره، كما تعدد الأسباب وتختلف عمن ديانة إلى أخرى [٤].

والباحث يتبنى التعريف الذي يقدم "شـروطاً" للمـوت حيـث حـدده بالأساليب التالية:

١- الموت بوصفه وسيلة يحاول الفرد بها اشـتقاق أهـداف معينـة، وجوانب إشباع من البيئة كما في حالة التهديد بالانتحار.

٢- الموت بوصفه انتقالاً إلى حياة أخرى، والتي قد ينظر إليها علـى أنها حياة رهيبة شنيعة أو مجيدة رائعة.

---

(٢) سامية القطان: محاولة تفسيرية لسيكولوجية القتل ما بين الجريمة والعقاب، مجلة علم النفس، العدد ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ (ص٣٣).

(٣) محمد حسن غانم: "ديناميات صورة السلطة لدى المسجونين دراسة نفسية مقارنة"، رسـالة ماجسـتير غير منشورة، ١٩٨٦، جامعة عين شمس (ص١٨).

(٤) سيد عويس: "الخلود في حياة المصريين المعاصرين"، الهيئـة المصـرية العامـة للكتـاب، ١٩٧٢ (ص٤٩:٥٤).

٣- الموت بوصفه نهاية نتوقعها [(١)].

ولعل هذا التعريف قد جمع بين التهديد بالموت وبين الموت فعلاً على أساس أنه نهاية طبيعة يتوقعها الإنسان وإن اختلفت النظرة إلى النهاية.

٤- الانتحار:

(أ) في القانون: كان الجاري في دوائر النيابة العامة اعتبار واقعة الانتحار جناية قتل عمد مع سبق الإصرار، المعاقب عليه بالمادتين ٢٣٠، ٢٣١ من قانون العقوبات، ولكن في النهاية يتقرر بحفظ الدعوى العمومية لامتناع العقاب، أي أن الشخص إذا قتل نفسه فإنه لا يعاقب على فعله [(٢)].

(ب) في علم النفس: الانتحار هو سلوك تدميري من الفرد لنفسه، حيث يقوم طائعاً مختاراً ولأسباب ودوافع متعددة - على تدمير ذاته بيديه، بدلاً من أن يوفر لها أسباب الحياة. ولا ننسى قول نيتشه والذي فرق بين نوعين من الموت، موت طبيعي، وهو ظاهرة لا حيلة للمرء في دفعها ثم الموت الإرادي وهو الانتحار. وقد حبذ نيتشه الموت الإرادي لأن فيه تحدياً للاستلام للموت الطبيعي [(٣)].

٥- الشخصية: Personality

تتعد التعريفات التي قدمت لمفهوم الشخصية، بيد أن أكثر التعريفات شمولاً لمفهوم الشخصية هو ذلك التعريف الذي قدمه جوردون ألبوت

---

(١) أحمد محمد عبد الخالق: "قلق الموت"، عالم المعرفة، العدد ١١١، الكويت، ١٩٨٧ (ص٤٣:٤٤).

(١) سعد جلال: "في الصحة العقلية" - الأمراض النفسية والعقلية والانحرافات السلوكية، دار الفكر العربي، ط٢ ١٩٨٦ (ص٤٦٢).

(١) مكرم شاكر إسكندر: "أدباء منتحرون" -دراسة نفسية، دار الراتب الجامعية، بيروت، ١٩٩٢ (ص٥:٦).

Gordon Allport والذي يرى أن "الشخصية هي التنظـيم الـديناميكي لأجهزة الفرد النفسجمية Psychophysical والتي تحدد أوجه توافـق الفرد مع بيئته [١].

٦- الحرافيش:

هم فئة من الشعب تمثل المطحونين/ المنبوذين والذين قد يستجيبون سلباً لكافة أحداث المجتمع وقد عبر عنهم نجيب محفوظ في ملحمته الشهيرة "ملحمة الحرافيش".

تساؤل الدراسة:

كيف كانت مصائر الأشخاص في ملحمة الحرافيش؟

وما دلالة ذلك؟

عينة الدراسة: رواية ملحمة الحرافيش.

المنهج المستخدم: تحليل المضـمون Content analysis محـاولين استنباط المصير من خلال تحليل مضمون حياة الشخص ككل، وكيـف كان مصيره.

---

(١) فرج طه: "الشخصية ومبادئ علم النفس"، مكتبة الخانجي، ١٩٧٩ (ص١١:١٦) القاهرة.

الدراسة

أولاً - الاختفاء

انقسم الاختفاء إلى:

أ/ ١ - الاختفاء/ الحضور العظيم:

ظل عاشور الناجي والذي اختفى فجأة حين بلغ الستين هـو الحاضـر الغائب طوال الملحمة، يتم تذكره إذا جاء أحد من أحفاده وتولى أمـور الفتونة، وحاول قدر طاقته إقامة العدل، ونصر المظلوم، وكذا يتم تذكره كلما حاق بأي فتوة (أو ذي منصب) أي لعنة أو ضرر يتم تذكر عهـد الناجي. وظل طوال الملحمة كنموذج ورمز -مثلـه فـي ذلـك مثـل الجبلاوي- ولعل الحوار الذي دار بين سليمان شمس الـدين النـاجي وولديه (بكر وخضر) يوضح هذا الموقف، ويقدم النموذج (المثال الذي لن يتكرر لشخصية عاشور الناجي).

قال ابنه بكر:

- ولكن جدنا عاشور كان يحب الحياة الفاخرة!

فسأله بغضب:

- من أنت لكي تفهم المعلم عاشور؟

- هكذا قيل يا أبي....

- لا يفهم عاشور إلا من اشتعل قلبه بالشرارة المقدسة.

- ألم يحتل دار البنان؟

فقال سليمان محتداً:

- معجزته في الحلم والعهد.

فقال بكر بجرأة غير محمودة:

- كان يستطيع أن يهرب من الشوطة بلا حلم.

احتقن وجه سليمان بالدم وهتف:

- هكذا نتكلم عن الناجي!" (ص١٥٨).

والأمثلة كثير في الملحمة على عظمة عاشور الناجي.ز انظر مثلاً حين تولى جلال الفتوة ماذا قال له أبوه:

"ألا تريد أن تحتذي مثال عاشور الناجي؟

- أين عاشور الناجي؟

- في أعلى عليين يا بني" (ص٤٠٦).

وكذا في موقف آخر إذا دار حوار بين جلال وعبد الخالق العطار.

-سمعت ولا شك عن حكاية عاشور الناجي؟

- حكاية محفوظة يا معلم.

فقال جلال بعد تردد:

- إنني أعتقد أنه ما زال حياً!......

وواصل جلال قائلاً:

- وإنه لم يمت.

وقال عبد الخالق:

- كـان عاشـور رجـلاً صـالحاً والمـوت لا يخطـئ الصـالحين (ص٤١٨:٤١٩).

كذلك ظهر نموذج عاشور الناجي في الحكاية التاسعة، حين أراد فـتح الباب أن يعيد العدل المفقود في زمن اشتد في الوباء، وكان يوزع على الناس الصدقات ليلاً وهو يقول: من عاشور الناجي (ص٤٩٦:٥٠١).

ولعل عاشور الناجي كرمز يمثل العدل والمساواة، وإقامة مجتمع فاضل لا يوجد به تفاوت طبقي عنيف. ولا نريد أن نخوض في تفسيرات دينية متوغلة كما يفهم ويفعل البعض ذلك، ولكن مثل هذا المعنى تظل في نفوس الناس بل وخالدة خلودهم في الحياة.

أ/ ٢- الاختفاء/ الحضور العظيم المباغت:

ظل الحرافيش طوال الملحمة يمثلون الحاضر/ الغائب، ينفعلون مع الأحداث سلباً أو إيجاباً دون أن يتعدى مجرد الانفعال الصامت أو اجترار الأفكار والمشاعر، بيد أن الحرافيش كقوة مسيطرة يحسب لها الفتوات حساباً تجلت في موقفين:

الأول: حيث تحكم سماحة شمس الدين الناجي في الأسعار، وشحت البضائع وكان يقوم فتح الباب -الحكاية التاسعة- بتوزيع البضائع عليهم ليلاً.. قائلاً لهم: إنها من عاشور الناجي. لكن افتضح أمره، وكاد أن يصفى دمه - بعد أن تعليقه في السقف، وهنا هب الحرافيش، وانتقموا من الفتوة وأعوانه بل وسيطروا على الحارة تماماً (ص٥٠١).

الثاني: لقاء عاشور ربيع الناجي مع الحرافيش المطرودين في ساحة الدراسة، ودار بينهم حوار عن كيف تعود الحارة إلى عهدها السعيد بعد أن استشرى الظلم، وهنا زلزل الحرافيش أركان الحارة، والحارة هي رمز للمجتمع لدرجة أن الفتوة وأعوانه قد هربوا، ولم يبق في الحارة إلا عاشور والحرافيش (ص٥٥٨).

هذان هما الموقفان اللذان أبرزهما محفوظ طوال الملحمة وفي ذلك تأكيد لدور الحرافيش المؤثر -وليس السلبي/ الخانع/ المتلقي- الإيجابي في تغيير مجريات الأمور.

ب/ ١- الاختفاء/ الاختفاء المشين:

هناك عدة مواقف نذكر منها موقفين:

الأول: اختفاء سنية السمري -زوجة سليمان شمس الدين الناجي الثانية- مع شاب سقاء، وكانت كارثة جعلت ابنها بكر ينكس رأسه، وقد اختفت بعد أن "فاحت رائحتها" وقد طلقها سليمان -بعد أن أصيب بالشلل (الحكاية الثالثة).

الثاني: اختفاء بكر سليمان الناجي، بعد أن توهم أنه قتل زوجه، وقد حاول قتل شقيقه خضر - بعد أن حاول إنقاذه من الإفلاس. (الحكاية الثالثة أيضاً).

ب/ ٢- الاختفاء/ الحضور النادر:

ويتجلى ذلك في موقف -أو حكاية- سماحة بكر سليمان الناجي الذي ظل طريداً لجريمة لم يرتكبها بل اتهم بها ظلماً وعدواناً - جريمة قتل عجمية- كذا ظنه أن قتل المخبر زوج محاسن البولاقية، عاد إلى الحارة وهو ضرير. بعد كل هذا العمر من الاختفاء والخوف من القبض عليه. وقد وصف محفوظ هذا الموقف -موقف الاحتضار: "تدهورت صحة سماحة فاضمحل سريعاً، وما لبث أن أسلم الروح وهو يتأهب للنوم عقب صلاة الفجر، وكأنه لم يرجع من منفاه إلا ليدفن في جوار شمس الدين"(ص٣١٩).

ب/ ٣- الاختفاء/ الحضور المنقذ:

لعل حضور خضر سليمان الناجي، حين قدم لينقذ شقيقه بكر من الإفلاس، وقد قام بواجبه، رغم اعتراض شقيقه بل ومحاولة قتله، ولم يكتف بذلك بل تولى رعاية أولاد شقيقه بكر، وأولاد أحد أولاده (سماحة

بكر الناجي)، أما أولاد شقيقه بكر فكانوا (رضوان وصفية وسـماحة)، وأولاد سماحة (وحيد وقرة ورمانة).

ب/ ٤- الاختفاء/ الحضور المثير:

لعل حكاية زهيرة، تلك الفتاة الصغيرة ذات الستة أعوام والتي عملـت في منزل العمل عزيز وحين طلبتها أمها لكي تتزوج مـن عبـد ربـه الفران، وحين رآها المعلم عزيز هاجت أفكاره وتساءل: أين كان يختبئ هذا الكنز؟ وقد خصص لها نجيب محفوظ حكاية أطلق عليها اسم شهد الملكة، لأن رجالاً كثيرين أحبوها وتصارعوا من أجلها، وقتل من قتل واستبعد من استبعد أو نفي من نفي، حتى قتلها أحد أزواجها السـابقين (محمد أنور). (الحكاية السادسة).

ب/ ٥- الاختفاء/ الاختفاء بلا أثر:

لعل اختفاء درويش زيدان عقب اختفاء عاشور الناجي، وإطلاق بعض الشائعات من أن درويش وراء هذا الاختفاء وأنه خشي مـن الانتقـام، وهنا اقترح عليه شيخ الحارة ضرورة الهرب "وقـد اختفـى درويـش زيدان فجأة، فلم يعد يعرف إن كان هرب أم قتل، ولم يسأل أحد عنـه، وتجاهله محمود قطائف تماماً، وما لبث أن حل محله عليوة أبو راسين بياع النزل وكأن درويش لم يكن" (ص٩٥).

ب/ ٦- الاختفاء/ الاختفاء الدائم:

ويظهر ذلك في حكاية ضياء -أخو فائز وعاشور- الذي حاول أن ينقذ أمه وأخاه عاشور من السكن في القبور بعد فضيحة فائز وانتحـاره - ولكنهما رفضا لاقتناعهما أنه قد سلك مسلكاً غير شريف، وظل ضـياء مختفياً ولم يظهر مرة أخرى أبداً (الحكاية العاشرة).

تلك كانت نماذج الاختفاء وأنواعها والتي ذكرت في سياق الملحمة.

ثانياً - القتل

وقد انقسم إلى الأنواع التالية:

١/ أ- القتل للانتقام:

وقد حفلت الملحمة بالعديد من هذه النماذج نذكر منها:

* قتل محمد أنور لزهيرة زوجه والتي أجبر على تطليقها ولكنـه لـم يفعل وهرب، وظل مختبئاً يتتبع أخبارها، وبعد أن تزوجت من المعلـم عزيز، وقامت حروب من أجلها، ثم نقل فؤاد عبد التـواب المـأمور، حتى كانت ذات يوم وقد "غادرت جامع الحسين كالعادة وسط مظـاهرة من الشحاذين والمجاذيب.. وهمت الصعود عندما سمعت صوتاً قريبـاً يهمس: زهيرة.

نظرت نحو الصوت فرأت محمد أنور يطالعها بوجه الموت. انـذعرت مندفعة نحو الكارو ولكن الرجل رفع عصا غليظة وهى بها بكل قوتـه على رأسها النبيل الجميل فتهاوت على الأرض صارخة.

وظل يضرب الرأس بوحشية حتى هشمها تماماً غير مبال ببكاء جلال وراضي" (ص٣٧٨).

* قتل رمانة لشقيقه قرة عين، حيث كان قرة عين مثالاً للاجتهاد فـي التجارة، وعلى عكس رمانة تماماً الذي كان يحيا حياة كلهـا صـخب وإدمان وفجور، وحين اقترح رمانة ضرورة "تقسـيم التجـارة" حتـى

يستقل كل بتجارته، فزع رمانة، وخرج قرة للتجارة -ولكنه لم يعـد..
ودارت الأحداث حتى اعترف رمانة لعزيز قائلاً:
"أعترف لك بأنني مدبر قتل أبيك.
فقال عزيز بأسى:
- أعرف ذلك.
فقال بحزن:
- إنه مدفون بملابسه في قبر وحيـد لصـق مقـام الشـيخ يـونس.
(ص٣٢٠:٣٢١)
* قتل زينات الشقراء لجلال بالسم، حيث كانت تحبه لدرجة العبادة، بل وانقطعت من الدعارة وأخلصت له وكان أملها أن يقترن بها وتصـبح سيدة في بيتها، غير أنه بعد أن انقضى العام المحدد له من العزلة لكي يدخل إلى الخلود حتى فوجئت به يتناساها تماماً، ويغامر بالدخول فـي علاقات مع غيرها، فما كان منها إلا أن وضعت له السم، في الخمـر وظل جلال يجرع وهي تقول له:
لقد جرعت من السم ما يكفي لتقل فيل.
- أنت؟
- أنت يا حبيبي.
وضحك ولكنه سرعان ما كف عن الضحك في إعيـاء فقالـت وهـي تبكي:
- قتلتك لأقتل حياة العذاب" (ص٤٣٨).
إنه انتقام المرأة نتيجة عدم إخلاص الرجل لها.

* قتل الفتوة الفللي لعجمية (بنت صباح كودية الزار) نكاية في سماحة الناجي، والذي كان قد أبلغه أنه يريد الزواج منها ويدعو الفتوة ورجاله إلى حضور حفل القران، بيد أن الفتوة أخبره بضرورة أن يتخلى هـو عن هذه الزيجة بل ويذهب بنفسه ليخطب له عجميـة مـن والـدتها، وانصاع للأمر بيد أنه كان قد اتفق مع عجمية على ضـرورة الهـرب وفعلاً انتظرها.. ولكنها قتلت، واتهم سماحة بقتلها وبدأ رحلة المطاردة (الحكاية الرابعة).

٢/ ب- القتل بهدف السرقة:

مثل قتل رمانة للشيخة ضياء بعد أن تمادى في حياة العربدة، والسـكر والمخدر "وذات مساء اشتد به السكر فمضى مترنحاً إلى جناح الشيخة ضياء، فدار حوار مجلسها وهو يقهقه وراح يقول لها ساخراً:

- إنك أصل البلاهة والبلاء.

وظلت المرأة غائبة فقال:

- إنني في حاجة إلى نقودك فأين تكتنزيها يا معتوهة؟!

وقبض على يدها وأنهضها بعنف ففزعت المرأة وضربته بالمبخرة في وجهه عند ذاك جن غضبه فقبض على عنقها وشد بعنف فلم يتركها إلا جثة هامدة" (ص٢٣٠).

٢/ ج- القتل بسبب الغيرة:

مثل قتل فؤاد عبد التواب للفتوة نوح الغـراب مـن أجـل أن يتـزوج بزهيرة، وقد حدث أن أرسل إليها كل منهمـا يريـد الـزواج منهـا، فاشترطت على نوح الغراب مثلاً -أن يطلق نساءه الأربع، وقد حـدث فعلاً" وسارت زفة نوح الغراب في موكب ضخم أو في أمان من عهود

الصداقة بينه وبين فتوات الحارات المجاورة، غير أنه حدث مفاجأة في الدراسة لم يتوقعها أحد إذ تحرش فتوة العطوف بالزفة خارقـاً العهـد والزفـــة.. وإذا برصاصـــة تصـــيب العـــريس فترديـــه قتـــيلاً" (ص٣٦٨:٣٦٩).

٢/ د- القتل بهدف رد الاعتبار إلى الذات:

مثل تلك المعرفة أو التحدي الذي أدباه شمس الدين جلال الناجي تجـاه الفتوة سمعة القلاش حيث أجبره الفتوة على ضـرورة أن يكتـب كـل أملاكه باسم ابنته بيد أن شمس الدين رفـض وقامـت معركـة بـين الرجلين..تدخل البعض لصالح أحدهما حتى انتهت إلى قتل الفتوة، وقفز سماحة الدين إلى الفتونة (الحكاية الثامنة).

٢/ ه قتل الرمز:

مثل قتل الفتوة حميدة لفتح الباب.. ذلك الشاب الذي تحدى بطش سماحة وجشعه، وكان يسرق من المخازن ليلاً الطعام ويوزعه على الحرافيش قائلاً لهم إنها من عاشور الناجي، حتى قبض عليه، وأمر سـماحة أن يعلق من قدميه في السقف حتى يصفى دمه، بيد أن الحرافيش أنقـذوه، وتولى الفتونة، لكنه عين حميدة ودنقل، حيث استأثر حميـدة بالفتونـة، وحدد خطوات فتح الباب ومنع خروجه نهائياً قائلاً له: "إنك غير مأمون الجانب فالبق حيث أنت وسيجيئك رزقك بلا تعب" (ص ٥٠٨) ولكـن "ذات صباح عثر عليه، جثة مهشمة في أسفل مئذنة المجنونة".. هكـذا انتهت سيرة فتح الباب وجهاده مثل صحوة قصيرة مشرقة فـي يـوم طويل ملبد بالغيوم" (ص٥٠٨).

٢/ ط- القتل بهدف الإصلاح:

مثل قتل شمس الدين جلال الناجي لأبيه جلال (الثـاني) الابـن غيـر الشرعي لجلال الأول إذ بعد أن توفيت والدته (زينات الشقراء) انقلبت حياته من النقيض إلى النقيض وقد ذهب شمس الدين إلـى أبيـه فـي البوظة ليمنعه من التهتك والرقص عارياً أمام السكارى ونشبت معركة بين الابن وأبيه، وحمل أباه إلى البيت: فقام جلال إلى عنق زوجه يريد قتلها.. هنا فزع شمس الدين (الابن) وحذر والده من أنه بذلك سـيقتل والدته، بيد أنه لم يحفل بها "فزع شمس الدين إلى مقعد خشبي فرفعـه وهوى به على رأسه بقوة جنونية" (ص٤٥٣).. ثم تتطـور الأحـداث بسرعة مذهلة فيموت جلال متأثراً من هذه الضربة، ويلقب شمس الدين في الحارة "بقاتل أبيه". (الحكاية الثامنة).

٢/ و- القتل بهدف القصاص:

وهو ذلك القتل الذي تمارسه السلطة بهدف إقامـة العـدل، وتطبيـق القانون، ولعل واقعة القبض على محمد أنور.. قاتل زهيرة وإعدامـه، دليل على ذلك. وإن كان يلاحظ بصفة عامة، ورغم وجود شيخ الحارة -وهو ممثل السلطة كقوة قانونية، وكعـين للدولـة- إلا أن دوره فـي مجريات الأمور يكاد أن يكون معدوماً كما يظهر دوره بتحيـزه إلـى الفتوة، أحياناً إلصاق الجرائم التي تتم بأناس لم يرتكبوا هذه الجرائم.

ثالثاً - الموت

رغم أن الموت هو النهاية المحتومة لجميع البشر، إلا أن له العديد من الصور نوجزها فيما يلي:

٣/ أ- الموت الطبيعي:

وهو الذي يحدث نتيجة للتقدم في العمر وقد تحدث عنه محفـوظ فـي سياق الملحمة وكأن هذا الأمر شيء عادي "دفن فتحية زوجـة أبيهـا" شهد موت الشيخ طلبة القاضي إمام الزاوية وسعيد الفقي شيخ الحـارة وعثمان الدرزي الخمار (ص٢٠٤:٢٠٥).

٣/ ب: مقاومة الموت وعد الاستسلام له بسهولة:

مثل شمس الدين عاشور الناجي، ذلك الفتوة الذي حاول قـدر طاقتـه الاستمرار على عهد عاشور العظيم ورغم تقدمه في السن إلا أنه ظـل محافظاً على قوته لآخر لحظة، رافضاً الخلود إلـى الراحـة وعـدت صلابته البطولية أسطورة وكرامة من كرامات الأولياء حتـى سـمي بقاهر الشيخوخة والمرض (ص١٤٦).

٣/ ج- الموت هماً:

سوت نكتفي بذكر مثالين:

الأول: موت فلة حين طلبت من ابنها شمس الدين عاشور النـاجي أن تتزوج من عنتر الخشاب ولكنه رفض بحدة أنه زوجة عاشور النـاجي لا يصح أن تتزوج، بل وهدد عنتر الخشاب وحين تأكدت من الـرفض "تصاب بحمى، تتدهور صحتها ولا تنع معها وصفات العطار، وترنـو

إليه صامتة، وتعجز حتى عن البكاء، وتسلم الروح في جـوف الليـل" (ص١٢٨).

الثاني: موت سليمان شمس الدين الناجي حين مر بأكبر ضغطين فـي حياته:

(أ) نشوب معركة بين والديه (بكر وخضر) حيث اتهم الأول شقيقه بأنه يحرض زوجه على خيانته مما أدى إلى هروب الثاني.

(ب) السمعة السيئة لزوجة سنية هانم السمري، بل وهروبها مع شـاب سقاء بعد أن طلقها سليمان الناجي.

٣/ د- الموت مرضاً:

مثل موت قمر وهي في ريعان شبابها وكانت تستعد للزفاف من جلال إذ "ألمت بها وعكة برد غير أنها لـم تعطـل الاسـتعدادات المتوثبـة للزفاف. واندفعت الوعكة في طريـق مجهـول فارتفعـت الحـرارة واضطربت الأنفاس، واشـتدت الآلام وتسـلل الـذبول إلـى الـوردة الناضرة.. مثل عدو ماكر خسيس خائن، ولزمت الفراش بـلا حـول فخبت نظرتها واصفر لونها ووهن صوتها.. (وانطلق) صـوات فـي جوف الليل يعلن صعود الروح إلى مستقرها" (ص٣٩٦).

٣/ هـ - الموت لأسباب خارجية:

مثل موت والدة محاسن البولاقية حيث كان ضريرة وقد ماتـت موتـة غريبة حيث "سقطت من نافذة الصالة المطلة على المنور فتهشم رأسها" (ص٢٣٣).

٣/ و- الموت لأسباب ذاتية:

مثل موت وحيد سماحة الناجي نتيجة لشذوذه وسمعته السيئة وطرقه لكل ما هو مألوف - وهو سلوك أقرب إلى الانتحار-"

لقد غدا الفتوة مضرب الأمثال بشذوذه وشراهته في البر كله لا في الحارة وحدها. وقد عاش بضعة أعوام بعد وفاة أبيه، ومات إثر هبوط في القلب نتيجة الإفراط في البلبعة" (ص٣٢١).

٣/ ز- الموت بعيداً عن الأهل:

مثل موت رمانة في السجن بعد أن قتل الشيخة ضياء، كما اعترف لعزيز أنه دبر لقتل والده (وهو الآن نفسه شقيقة).

٣/ ح- الموت الجماعي:

وقد ذكره محفوظ في الحكاية الأولى، ذلك الموت الجماعي الذي يأتي عقب "قيء وإسهال مثل الفيضان ثم ينهار الشخص ويلتهمه الموت" (ص٥٤) وقد "دبت في ممر القرافة حياة جديدة.. يسير فيه النفس وراء النفس، يكتظ بالمشيعين وأحياناً تتابع النفوس كالطابور، في كل بيت نواح، بين ساعة وأخرى يعلن عن ميت جديد. لا يفرق هذا الموت الكاسح بين غني وفقير، قوي وضعيف، امرأة ورجل، عجوز وطفل، إنه يطارد الخلق بهداوة الفناء" (ص٥٥).

٣/ ط- الموت بعد حدوث تغيرات سلبية في الجسم:

لعل الشيء اللافت للنظر في ملحمة الحرافيش هو ذكر محفوظ العمى للعديد من الأشخاص والذين تتقدم بهم الحياة فقد حدث العمى لسماحة بكر الناجي، وكذا حماته، وزوجه محاسن البولاقية، وكذا حدوث شلل نصفي لجده سليمان شمس الدين الناجي.

رابعاً - الانتحار

قدم محفوظ نموذجين له هما:

(أ) الانتحار بسبب الخوف من الفضيحة والعقاب:

حيث قام فائز بقتل نفسه حيث وجدوا "فائز شاخص البصر، ملقي الوجه بلا حول، كأنه متجمد منذ ألف عام، يسراه مدلاة من حافـة الفـراش الوثير، تتكون تحتها بحيرة من دم فوق السجادة الشيرازي، وثمة خنجر فوق القفطان الكموني ذو مقبض ذهبي" (ص٥٣٠).

ولكن لماذا انتحر فائز؟

لقد أسفرت التحقيقات والتحريات عن حقائق مفزعة، إذ "بدأ مغامرتـه ببيع الكارو. انه اسـتثمر مالـه فـي الـدعارة والقمـار والبرمجـة والمخدرات.. وكان يقامر بثروات خيالية، وفي حال الخسـران كـان يستدرج الغريم مستعيناً بالنساء والمخدرات فيقتله ويستولي على النقود ثم يواريه في فناء داره. وفي آخر مقامرة خسر أموالـه جميعـاً ثـم اضطر إلى المقامرة بأملاكه في شكل عقد بيع صوري فخسرها أيضـاً ولم يتمكن من قتل غريمه الذي فر فروحه وماله، ولما خسر كل شيء، وأصبح سره مهدداً بالانفضاح انتحر" (ص٥٣٨).

(ب) الانتحار بسبب الحزن على الحبيب:

لعل حكاية العلاقة التي نشبت بين الزوجين (رئيفـة ورمانـة) مثـال صادق لكيف يكو الحب والذي يصل إلى درجة التوق بـالمحبوب بـل والفناء فيه، فلقد كانا يتماثلان تقريباً في كل الصفات، ورغم أنهما لـم ينجبا وتم الطلاق، وتزوجت رئيفة بسرعة من رجل آخـر، وجـرب

رمانة الزواج من أربع جاريات بهدف الإنجاب حتى تأكدا تماماً أنهمـا عقيمان. هنا انخرط في الخمر والمخدرات، وقتل الشيخة ضياء وأودع السجن، وحرصت رئيفة على زيارته متحدية بذلك القوانين والأعراف وحين علمت بموته في السجن انتحرت هماً وحزناً عليـه (صـفحات متفرقة من الحكاية الخامسة).

تلك كانت باختصار أبرز النتائج التي أسفر عنها تحليل نهاية الأشخاص في ملحمة الحرافيش.

ولو لخصنا كل ما سبق في هذا الجدول لكان كالتالي:

النهاية	ك	%
الاختفاء	٩	٣١,٠٣
القتل	٨	٣٤,٤٨
الموت	١٠	٢٧,٥٩
الانتحار	٢	٦,٩٠
مجموع	٢٩	١٠٠%

ولكن ما تفسير طبيعة كل نهاية؟

نستطيع أن نتصور أن الاختفاء يمثل متصلاً على أحد طرفيه اختفـاء إيجابي (يقود إلى الخلود ويضع الفرد في موضع الأساطير) واختفـاء سلبي مشين، وبين هذا وذاك يوجد أنواع عدة مـن الاختفـاء. ولعـل اختفاء عاشور الناجي (وهو في الستين من عمره) وتضارب الأقـوال بشأن حقيقة هذا الاختفاء قد جعله الرمز -إلى درجة الأسطورة- طوال الملحمة إذ يمثل العدل والمساواة ومقاومة الظلم ونصره الحق.. وهـي

كلها سمات مجردة يتعلق بها البشر. كما أن اختفاءهـا مجسـدة فـي شخصية عاشور الناجي إنما يشير على أن هـذه المبـادئ خالـدة ولا تموت وسوف تظل أملاً للبشرية تتعلق بها.
أما الاختفاء السلبي أو المشين فيقصد به عدم مناسبة الفرد لطبيعة البيئة التي يحيا في كنفها وما تفرضه من قواعد وقـوانين وإذا كـان الفـرد المختفي ينجو بذاته مبتعداً، فإنه يترك الأثر السيئ للذين يتنمي إلـيهم، ويظل هذا الاختفاء عاراً يلاحق الأجيال، ولا شك أن هذا يؤكد مقولـة انتماء الفرد إلى الجماعة، وأن الجماعة تضفي المشـروعية والحمايـة والامتداد على الفرد، وهذه الحقيقة قد أكدتها دراسات التحليل النفسـي من أن الإنسان وهو في أشد حالات العزلة والوحدة، في حالات الجنون أو حتى النوم، إنما يهلوس متخيلاً الآخر أو الآخرين إذ بدون الآخر لا توجد الذات.
فهل كان نجيب محفوظ يعني هذه الحقيقة.. حقيقة أن هناك أشياء يجب أن تختفي عن الأنظار حتى تظل العقول والقلوب تتوق إليها ولا تعانقها أو تلقاها، وأشياء أخرى يجب أن تختفي بالرغم مما تتركه في النفوس من لوعة وأسى؟
أما القتل فتستطيع أن تتصوره أيضاً متصلاً، على أحـد طرفيـه قتـل مشروع (يجب أن تقوم به السلطة الحاكمـة لتثبيـت أركـان العـدل والمساواة) وفي الطرف الآخر قتل فردي (رواه دفاعاً عن النفس) وبين هذا وذاك توجد عدة أنواع من القتل.
لكن يتضح من خلال أحداث الملحمة عدم تدخل السلطة الحاكمـة فـي الأحداث على الرغم من تواجد ممثل للسلطة في الحارة (أو المجتمـع)

هو شيخ الحارة، كما أن السلطة لم تتدخل إلا نادراً جـداً وفـي حالـة واحدة حين تدخل فؤاد عبد التواب المأمور وانتهز الفرصة وقتل غريمه نوح الغراب وهو يزف على زهيرة وهذا يطرح قضية السـلطة فـي المجتمع، والعلاقة بين السلطة والجريمة ذلك لأن شخصية الفرد في أي مجتمع ما هي إلا نتاج لأجهزة التنشئة الاجتماعية والتي تمارس علـى الفرد سلطاتها، وقد تشكل هذه الأجهزة الشخصية السوية، وقد تشكل - في المقابل- الشخصية غير السوية [1].

ويرى فوريد S. Freud وأتباعه أن السلطة في الأساس هـي السـلطة الوالدية، وأن فشل الطفل في إقامة علاقة حسنة بينه وبين والديه يؤدي إلى نتائج سلبية قد تمتد معه مدى الحياة [1].

ويضيف شكلين إلى جانب السلطة الوالدية هما سـلطة الأسـاتذة فـي المدرسة أو الممتحنين، وكذلك سلطة الرؤساء أو المرشحين [2] وهـو نفس ما ذهب إليه هوارس. ب. إنجلين [3].

أما إيرك فروم Erick - Fromm فيفرق بين السلطة التسلطية مميـزاً بين نوعين من السلطة:

١- السلطة الرشيدة Rational - Authority.

٢- السلطة المثبطة Inhibition - Authority.

---

(١) محمد حسن غانم: "رسالة الماجستير السابقة"،١٩٩٠ (ص١٣).

(١) أحمد عزت راجع: "سيكولوجية المجرم العائد"، المجلة الجنائية القومية المجلـد الأول العـدد الثـاني، يوليو ١٩٥٨، (من ٦٦:٧٦).

(٢) محمد شعلان: مرجع سابق، ١٩٧٧، (ص ٤٥:١١).

(٣) هوارس. ب. إنجلن: "علم نفس الطفل في ميادين علم النفس النظريـة", والتطبيقيـة، المجلـد الأول، ترجمة السيد محمد خيري، أشرف يوسف مراد، دار المعارف، ط٤، ١٩٧٥ (ص ١١٧:١٠٩).

وللمقارنة بين هذين النوعين يعطينا فروم مثالين همـا: العلاقـة بـين التلميذ وأستاذه، والعلاقة بين العبد وسيده [٤].

كما أن ممارسة السلطة تختلف تبعاً للبنـاء الاقتصـادي والاجتمـاعي وشكل النشاط السائد في هذا المجتمع فالسلطة في المجتمع الصـناعي غير السلطة في المجتمع الزراعي وهكذا [٥].

مع العلم أنه يوجد العديد من العلماء الذين اجتهدوا في تقديم تفسـيرات لأهمية السلطة أو العوامل التي تقود إلى ضعفها في بعـض الفتـرات وخاصة آراء ابن خلدون, وماكس فيبر وغيرها من الآراء.

أما في حالة بزوغ سلطة الفرد وإصراره على ارتكاب الجـرائم، بـل ممارسة أساليب تجعله يبتعد عن طائلة العقاب فيعود ذلك إلى العديد من الأسباب، ولعل ظاهرة الأخذ بالثأر Ravage كمثال، تمثل ذلك حيـث يعزل افرد سلطة المجتمع ويقرر حقه بوسائل الفردية [١].

وإذا كان محفوظ يقدم مفهوم الفتونة (وهي ظاهرة تحتاج إلى دراسـة مستقلة) بمفاهيم عدة منها من يلتزم جادة العدل والمساواة ومنهـا مـن يناصر فئة على حساب فئة أخرى، ومن يفهم الفتونة على أساس أنهـا مغنم وخضوع من الجميع له وتسلط على رقاب العباد ولـذا فطـوال الملحمة ونغمة القهر والسلطة الغاشمة من جانب الفرد/ الفتوة لها الغلبة

---

(٤) عبد الستار إبراهيم: ديناميات العلاقة بين التسلطية وقوة الأنا، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة، ١٩٦٢ (ص ١٨:١٩).

(٥) إريك فروم: "الإنسان بين الجوهر والمظهر"، ترجمة، سعد زهران، مراجعة لطفي فطيم، عالم المعرفة العدد ١٤٠، أغسطس ١٩٨٩، الكويت (ص ٥٧:٦٠).

(١) أحمد فائق: "الأمراض النفسية الاجتماعية" - دراسة في اضطراب علاقة الفرد بالمجتمع، دار أتـون للطباعة والنشر، ١٩٨٢ (ص ٣٨٥).

طوال الملحمة.. فهل كان يقصد محفوظ بذلك أن افرد مهمـا كـان لا يصلح لتولي حكم الحارة (أو المجتمع) أو الديموقراطية والحـوار، وأن الحق في إبداء الرأي والرأي الآخر هو الوسيلة الوحيدة لإنقاذ المجتمع من كبوات وانفعالات هوجاء، حين تنجح فئة ما في اجتذاب الفتوة إلى صفها فتتوحد به (أو يتوحد بها - لا يهم)، وتقهر من خلاله فئة أخرى؟

أما الموت فرغم أنه حقيقة من الحقائق الواضحة، فقد أبـرز محفـوظ العديد من صور الموت، والتي قد تتحالف العديد من العوامل والضغوط Stresses على التعجيل بوفاة الفرد، وموضحاً في الآن نفسـه عامـل الفروق الفردية، وكمثال واضح جداً في الملحمة نرى كيف أن وحيـد سماحة الناجي كان مدمناً للخمر والبوظة والمخدرات والشذوذ الجنسي، وعبد ربه الفران كان مدمناً فقط للبوظة ورغم ذلك مات وحيداً مبكـراً جداً في حين أن عبد ربه الفران وبعد أن بلغ الستين من عمره قد تزوج وأنجب خالد وأقلع تماماً عن حياة اللهو والفجور وامتد به العمر.

وهذا المثال على عكس حال جلال الثاني -ابن جلال الأول والابن غير الشرعي منه حيث ظل محافظاً ورعاً وتقياً حتى بلغ الخمسين من عمره ومع وفاة والدته (في الثمانين من عمرها) انقلبت حياته من النقيض إلى النقيض.

فهل كان محفوظ بإبرازه لكل هذه الجوانب يؤكد حقيقة أن الموت واقع واقع وإن تغيرت الأسباب وتنوعت، وأن الموت لا يفرق بـين صـالح طالح؟

أما الانتحار فهو إقدام الشخص على إنهاء حياته بنفسه وإرادته لأسباب متعددة، وقد قدم لنا محفوظ كما سبق وأشرنا نموذجين للانتحـار مـع

اختلاف أسباب كل محاولة، فهل كان يقصد ضـرورة أن تقـدم هـذه العناصر الفاسدة (كان فائز مغامراً وقواداً وقاتلاً ولصاً - ورئيفة كانت شريرة وعاقراً وحاقدة) على ضرورة أن تتخلص من حياتها لأنها بدون جدوى للآخرين، والحياة إضافة وابتكار وحب وسلام وبدون هذا الهدف النبيل لا يستحق أن يعيش كل من خلاف هذا الناموس الطبيعـي؟ وألا يذكرنا ذلك بحديث الرسول ﷺ والذي يقول: "إذا أدرك أحدكم المـوت وفي يده فسيلة فليغرسها" أي فليغرسها على الرغم من علمه أنـه لـن يستفيد منها، ولكن يستفيد الآخرون، وحتى يترك لهـم الحيـاة أكثـر اخضراراً وعطاء وأمناً وأماناً.

فهرس

١٦- شخصية الحرافيش.. مدخل إلى سيكولوجية المقهورين
مصائر الأشخاص في ملحمة الحرافيش.. المعنى والدلالة

المؤلف

د. محمد حسن غانم

- دكتوراه في علم النفس بمرتبة الشـرف الأولـى - كليـة الآداب - جامعة عين شمس.
- عضو هيئة التدريس بكلية الآداب - جامعة حلوان - قسم علم النفس.
- عضو نادي القصة - عضو اتحاد الكتاب.
- عضو في العديد من الجمعيات النفسية.

صدر له:

أولاً: مؤلفات في علم النفس:

- علم النفس الإكلينيكي (جزءان) - ١٩٩٧ الطبعة الثانية ٢٠٠١
- اتجاهات حديثة في العلاج النفسي ١٩٩٨.
- العلاج النفسي الجمعي ١٩٩٨.
- علم النفس الخبائي ١٩٩٩.
- مدخل لعلم النفس العام ٢٠٠٠.
- علم النفس الفارقي ١٩٩٧.
- مشكلات نفسية/ اجتماعية ٢٠٠١.
- سيكولوجية الملابس ٢٠٠٠.
- الجنون بين الواقع والخيال - الناشر: مؤسسة الأهرام ٢٠٠٠.

- حياتك بلا خوف - كتاب اليوم الطبي - أخبار اليـوم - أغسـطس ٢٠٠١.

ثانياً: من الأعمال الإبداعية:

- قتل عضو مجلس الشعب (مجموعة قصصية) جمعية رعاية المواهب ١٩٩٥م.
- الرجل والعفريت (مجموعة قصصية) دار شهر زاد للنشر والتوزيع ١٩٩٦م.
- كل الأشياء الجميلة تنهار (رواية) مركز الحضارة العربية ٢٠٠٢.
- هذيان (مجموعة قصصية) مركز الحضارة العربية ٢٠٠٣.